بسّام مرتضى

نظرات في نفسيّات

المكتبة الإسلامية

نظرات ونفسيات

● الكتاب : نظرات ونفسيات ·

● المؤلف : بسام مرتضى ·

● الناشر : المكتبة الاسلامية

● الطبع : ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م ·

الإهداء

.. الى الذين ينظرون الى الحياة نظرة الحر المتفائل

... الى الذين لا تنهار نفوسهم أمام تحديات العصر لهم .

... الى الزهرات المؤمنة التي ينظرها الغد قدوه صالحه للناس .

اهدي لهم هذا الكراس المتواضع ، آملاً ان يستفيدوا منه ويحقق رغبتهم ، كي يجسدوا الخطى على طريق الاسلام .

مقدمة

من وحي واقعنا الذي نعيش ، بدأت أوتار العقل تضرب ، لتوقظ الفكر من سباته العميق ، بعد فترة عقلية مرهقة ، انقضت في البحث والتنقيب من أجل تصحيح نظرات وتجديد نفسيات تتفق وسمو الغايـــة المثلى . وبدأ القلم يكتب منصاعـــاً لأمر العقـــل متفقاً مع العقيدة الحية ، التي لا بد لها أن تظهر الى العالم اجمع ليعرفها ويعرف أبعادها .

ولكن هيهات هيهات منك يا قـلم من ان تقع في سفسطة الكلام ويذهب بك ريح الضلال الجارف .

ان الكتب كثيرة جداً وهي تختلف باختـــلاف المواضيع والأهـــداف ، ولكننا لا نستطيع أن نجزم بصحتها كلها لأن هناك منها ما هو صالح بنـاء ومنها ما هو صالح هدام .

ولكن .. لماذا هذا الصالح الهدام ؟ لماذا كتابته ؟ إنها لأجل الأغراض الشخصية والأهداف المغرضة التي لا فائدة منها ولا هدف سوى التضليل والتحريف تحت ستار الحق والصواب .

ان حرية الرأي وحرية الفكر وحرية العقيدة ، أمور واقعية صحيحه ، ولـــكن بشرط النزول الى المعترك الاجتماعي والمحاورة الفكرية كي يبرز الحق من الباطل وبشرط عدم التعصب على الرأي الخاطىء ، لا أن تعيش الحرية في رأيك وعقيدتك وسلوكك حسب ما تريد ، لأن الانسان قد يرى شيئاً باطلاً وفي رأيـه واعتقاده انه حق ، وقد يرى شيئاً حقاً وفي رأيـــه واعتقاده ايضاً انـه باطل وهـذا من أصعب الدرجات التي يصل اليها الانسان لأنه يكون قد اعمي على قلبـه فاصبح يرى الحق باطلاً والباطل حقاً . إلا أنه بالنقاش والحوار الهادىء البعيد عن الترمت والتعصب المذهبي الجامد الخاطىء ، يصل الانسان الى معرفة الحقيقة التي لا بد لها وأن تظهر في النهاية . وبدون تحقق هذين

الشرطين ـ الخضوع الى الحوار والنقاش الفكري وعدم التعصب على الرأي ـ يزوغ العقل عن قبول الحقيقة كما يزوغ القلم عن قول الحق والصدق في الكتابة والتعبير .

وعلى هذا فان الاخلاص في الكلمة والصدق في التعبير هما الأساسان اللذان يعطيان الكلمة قدسيتها المفروضة على كل كاتب ، وكثيراً ما ينحرف الكتاب والأدباء عن إعطائها هذه القدسية وهذا الحق تبعاً لأغراضهم الشخصية وأهوائهم المنحرفة ، فينصرفون عنه ويتركونه لأصحابه الأقلاء .

والمقياس الأساسي لذلك الحق هو الموضوعية في القصد ، بمعنى البعد عن كل مدح أو رياء أو مصلحة ، ولا يمكن لهذا الحق أن يتحقق إلا على ضوء الارتباط بالمطلق ، لأن أوامره ونواهيه كلها تتمثل في البعد عن كل تلك الأشياء والاخلاص له وحده .

وأخيراً نسأل الله تعالى ذلك . وقد منّ علينا ببركته بكتابة ما بين يديك أيها القارىء العزيز ، آملاً أن تستفيد منه وتفيد وهو حسبنا ونعم الوكيل .

في ٥ ـ ٢ ـ ١٩٧٩ م .
في ٧ ـ ٣ ـ ١٣٩٩ هـ .
بسام مرتضى

نظرات الى الحياة

للناس نظرات مختلفه إلى الحياة ، فمنهم من ينظر لها نظرة التشاؤم ، ومنهم من ينظرلها نظرة التفاؤل ، ومنهم من ينظر لها نظرة الاعتدال ، لا النظرة المتشائمة الكليه ولا النظره المتفائلة الكليه التي تصل بصاحبها إلى العيش في عالم الخيال في إطار تفاؤلي عارم .

ـ النظرة المتشائمة :

أسبابهـــا :

١ ـ وجود عقبات أمام الشخص تحول بينة وبين تحقيق أهدافه ، فتقف حجرة عثرة في طريق تامين مستقبله .

٢ ـ وجود عاهة في الشخص مؤثرة على شخصيته ، كفقدانه للبصر مثلاً أو لرجليه ويديه وما الى ذلك

من أمور حساسة مؤثرة على النفس تعكس على صاحب العاهة آثاراً تشاؤمية .

٣ ـ كثرة البلايا والمصائب الوبيلة المنهمرة ، التي تلمّ بالانسان ، كفقدانه لجميع أهله وأقربائه ، أو لأعز ما يحب ويملك .

٤ ـ كون الانسان فقيراً معدماً وشعوره بانسداد الرزق في وجهه ، وعدم توفر الحياة الكريمة له .

وهذه الأسباب حتماً ليست وحدها هي التي تكون سبباً للتشاؤم ، بل هناك أسباب أخرى أعرضنا عن ذكرها ، لأنها لا تحصى ، ولا يهمنا ذكر الأسباب بقدر ما يهمنا تأثير تلك النظرة على السلوك وغيرهـــا من النظرات الاخرى ، وبقدر ما يهمنا أيضاً مـــوقف الاسلام من تلك النظرات الثلاث .

أضف الى ذلك ، أنه قد يكون سبب من الاسباب المذكورة أو كلها حتى ليس أو ليست سبباً أو أسباباً للتشاؤم فهي تختلف من شخص الى آخر .

فقد يكون انسان فقيراً معدماً طوال عمره ومع ذلك فهو ليس بمتشائم لأنـه يتحلى بروح الصبر وهكذا بالنسبة لكل سبب من الأسباب الاخرى التي سنذكرها فيما يلي للنظرة المتفائلة والنظرة المعتدلة ، فالأسباب تختلف باختلاف الأشخاص وعقائدهم وإيمانهم وتفسياتهم .

والذي أريد أن أقول هو أن الأسباب التي ذكرتها والتي ساذكرها لكل نظره ، هي ثابتة عندي لملاحظتي ذلك في عديد من الأشخاص أثناء معاشرتي لهم ودراستي لنفسياتهم من حيث لا يشعرون . وقـــد ثبت لدي ذلك بالفعل .

ـ تأثير النظرة المتشائمة على السلوك : ـ

ويمكن ملاحظة ذلك ، في عدة تصرفات ، منها : ـ

١ ـ عدم احترام الناس بالشكل الأساسي المتعارف .

٢ ـ البغض للحياة والناس والكراهية لهم .

٣ ـ التشاؤم في جميع التصرفات والامور ونتائجها .

٤ ـ البعد عن واقع الحياة ومعتركها .

٥ ـ المناقشة والتحليل والعمل في إطـــار صبغة متشائمة على الأشياء . هـــذا اضافة الى سائر الانعكسات النفسية التشاؤمية على السلوك .

« شبهة دينية » : ـ

قد يحلو للبعض أن يتهم الدين الاسلامي أو الدين بشكل عام ، بأنه سبب من أسباب التشاؤم ، لأنـه يصور الحياة كشيطان ينبغي محاربته ، ولأنـه يحرّم ملذاتها ويأمر بالابتعاد عنها كلياً ، لأنها مفتاح كل شر ، ذلك الشر الذي لا يتكون الا من خلال تلك النظرة الدينية المتشائمة للحياة .

وهذا بحق هو عين الخطأ وعين الاتهام والوصف المنحرف عن الوصف الحقيقي للدين ، وهو غير مبني على دراسة واقعية ، بل مبني على قشور أخـذت من الصوفيين والمتقشفين في الحياة .

وهذه الشبهة يظهر خطؤها عند بيــــان أن موقف الاسلام من تلك النظرات الثلاث التي بقي منها اثنين لم نتحدث عنهما بعد ، وفيما يلي النظرة المتفائلة .

ـ أسبابها : ـ

١ ـ عدم وجود عقبات عائلية أو اجتماعية أو نفسية أو مادية تحول بين الانسان وتحقيق طموحاته .

٢ ـ الحياة السعيدة التي يحياها الانسان ، والتي تدعوه الى التفاؤل الدائم في حياته .

٣ ـ الجو التربوي الذي رُبي عليه في المنزل أو المدرسة أو المؤسسة الاجتماعية ، الذي أعطاه روح التفاؤل وعوده عليها ، مهما اشتدت الصعاب .

٤ ـ كون الانسان غنياً ، بحيث لا ينقصه شيء وليس بحاجة الى أحد .

اذ انه من المعلوم أن المادة تلعب دوراً كبيراً في حياة الانسان ، وتأخذ قسطاً كبيراً من أذهان البشر

وبها تتحقق الغايات والحياة الكريمة المليئة بالرفاهية والطمأنينة .

وقد يقول قائل : ان هناك أثرياء كثيرون ، ومع ذلك تراهم أو ترى بعضهم متشائمين ، فكيف تجعل الثراء المادي سبباً من أسباب التفاؤل ؟.

الجواب : ـ ان هذا صحيحاً وليس قاعدة عامة على كل الأثرياء ، واعلم أن هناك أسباباً أخرى تدعوهم إلى التشاؤم في أكثر امورهم الحياتية ، ومع ذلك لا يمكننا أن ننكر دور المادة في تحويل وتقليب نفسيات متشائمة تشاءمت في الحياة لمجرد كونها فقيرة ومحرومة من عيشها الكريم الذي تحلم به . فما رأيك بالانسان المعدم إذا أمنت له المال ليعيش سعيداً ، ألا تعتقد بأنه سيفرح ويجدد نظرته في الحياة وتنقلب نفسيته رأساً على عقب ؟!

ان المادة ليست أساساً للحياة ولا أساساً للتفاؤل ، بل هي سبب وحل وتجديد .

وعلى هذا فان من الطبيعي للإنسان المتفائل أن ينبثق عنه تفكير وسلوك يعبروهما التفاؤل .

ـ تأثير النظرة المتفائلة على السلوك : ـ

ويمكن ملاحظة هذا التأثير ومعرفته من خلال تصرفات الفرد وسلوكه المصبوغ بروح التفاؤل ، وهذا يعرف من أمور منها : ـ

١ ـ التفاؤل الدائم في جميع الأفعال والتصرفات ونتائجها .

٢ ـ حب الحياة والرغبة في التمتع بها .

٣ ـ حب الأجواء الاجتماعية التي تسعد الفرد ، والعشق لكل ما هو جميل .

٤ ـ السعي الدائم الى استمرارية وتجديد روح التفاؤل كلما أراد أن يأخذ التشاؤم مكاناً في النفس .

والجدير بالذكر أن الانسان المتفائل تفاؤلاً كلياً ، قد تراه أحياناً بل وفي جميع أموره الحياتية متكبراً

لثرائه المادي ، وهذا بالفعل ما يجعلنــــا نرجـــح النظرة الاعتدالية التفاؤلية كنظرة اسلامية صحيحة تستحق التكبر من أساسه ، وفيما يلي النظرة المعتدلة :

وهـذه النظرة هي النظرة التي ترى الاعتدال في جميـــع الامور ، ومعناها عدم التفاؤل الكلي الذي يؤدي الى العيش في عالم مليء بالخيال والأحلام ، بعيد عن الواقع ، وعدم التشاؤم الكلي الذي سنفسره في قول قائل معترض ، وسيأتي بيان ذلك .

أسبابها : ـ

وهذه الرؤية المعتدلة نابعة من أسباب عديدة منها : ـ

١ ـ التربية الاجتماعية التي حصل عليها منذ صغر السن ونشأ عليها . وبالخصوص التربية الدينية .

٢ ـ الرؤية الواضحة للمجتمع والناس ، وكيفية حياتهم في اطار التفاؤل الكلي والتشاؤم الكلي ، مما يجعل الفرد يسلك طريق الاعتدال .

٣ ـ الانطلاقة الذاتية من الشخص ووجود هذه النزعة وجوداً فطرياً عند بعض الناس الذين يولدون وهم مفطورن عليها .

وهذا بالاضافة الى الاسباب الاخرى التي لم نذكرها تجنباً للتطويل ومعظمها يتفق ويشتمل على الثلاثة أسباب المذكورة آنفاً .

ومن الطبيعي أن ينبثق عن هذه النظرة المعتدلة فكر وسلوك متعدلين ويتمثل هذا الاعتدال في ثلاثة امور هامة هي : ـ

١ ـ الحب للمجتمع بمقتضى التفاؤل والعمل فيه باعتدال بمقتضى النظرة المعتدلة .

٢ ـ العطاء الاجتماعي وعلى جميع الأصعدة بشكل معتدل متوازن .

٣ ـ العمل على ابقاء هذه النظرة المعتدلة في النفس لئلا تقع في الافراط والتفريط ، ولكي تبقى

مؤثرة على الفكر والسلوك عقيدة وممارسة .

آراء ومناقشة : —

ترجع النظرية المتشائمة الى (شوبنهور) وتلميذه (هارتمان) اللذان يدعوان اليها ويدافعان عنها ، حيث يقول (شوبنهور) : —

« إن العالم رديء بالذات ، لأن كل موجود فاعل وكل فعل جهد مؤلم ، ففي العالم ارادة شريرة لا شعورية تتمثل في كل فعل وقوة ، وهي تدفع الى الحياة والحياة ألم ، الألم قانون الحياة ونسيجها ، يغتالنا بالمرض والشيخوخة والموت والنكبات المختلفة ، وتقلب الأحوال والعواطف ، ولما كان أصل الألم اشتهاء الوجود ، فالدماء هي الوحيدة التى تهز « ارادة الحياة » بالعدول عن العمل لكي نصل رويداً رويداً إلى إفناء شخصيتنا في « النرفانا » . أي مقر السعادة .

ويمكننا الرد على (شوبنهور) بما يلي : —

ان الحياة فيها ألم وليست كلها ألم وهنـــاك من الآلام ما يتعقبها سعادة . فالمريض مثلاً يشعر بالألم لأنـه مصاب بالمرض ، ولكنه عندمـــا يشفى يشعر بالصحة والسعادة .

والأعمال على قسمين :ـ

١ ـ أعمال تتطلب جهداً عقلياً فكرياً كما في البحث والدراسة .

٢ ـ أعمال تتطلب جهداً جسدياً كما في المهن .

وكلاً من الأعمال لا ينفك عن جهد فكري وعقلي ولو بدرجة ضئيلة ، لأن العقل والفكر هو المحرك والأساس لجميع الأعمال .

والأعمال بنوعيتها تتطلب جهداً وألماً ، ولكن في كثير من الأحيان يتعقبها سرور ولذة ، لا سيما وأن الحياة كلها عمل .

فحل مسـألة رياضية أو فيزيائية أو حـل مشكلة

اجتماعية ونحوها من الاعمال التي لا بد لها من جهد عقلي ، امور تظهر اللذة والسعادة فيها بعد حلها . وأيضاً تعلم المهن أو صناعة السيارات أو الطائرات أو أي عمل آخر لا بد لتحصيله من جهد جسدي تظهر اللذة فيه بعد إنهائه .

وما من شك أنه حتى أقل الأعمال شأناً تتطلب جهداً ولو بسيطاً ، تحصل اللذة من ورائها .

وعلى هذا لا يمكن الحكم على الحياة بهذه النظرة المتشائمة ووصفها بأنها كلها ألم بمعنى الألم حسب النظرة التشاؤمية المتقشفة المنحرفة . وعلى هذا يمكن أن يقال ان الحياة كلها عمل ، والعمل يتطلب الجهد والألم ، فالحياة كلها جهد وألم والجهد والالم تتعقبهما اللذة .

وما رأي (شوبنهور) في المدركات العقلية للخير والجمال والمحبة المولدة للذة العقلية ، أليس أنواعاً من اللذة أيضاً .

وما قوله بالاعمال الروحية المولدة للذة والنشوة

الروحية ، أليست أنواعاً من اللذة ؟! فالحياة إذن لم تعد مليئة بالألآم التي تبرر وتفسر النظرة التشاؤمية للحياة ، والمرض والشيخوخة والموت والنكبات المختلفة ، وتقلب الاحوال والعواطف . كلها امور محتومة وواقعية ولكنها لا تبرر التشاؤم في الحياة أيضاً فالمرض قد يتعقبه لذة وسعادة كما قلنا ، والشيخوخة أمر طبيعي بيولوجي يحدد اقتراب مصير الانسان ، والموت أيضاً لا بد منه لأنه أمر محتوم تسير فيه جميع الكائنات الحية وتتساوى فيه . والنكبات وتقلب الاحوال والعواطف ، امور أيضاً لا يمكن التخلي عنها لانها تشعر الانسان بأنه انسان ، فلا راحة من دون مصارعة الحياة وتقلباتها ، وما الفائدة من وجود الانسان اذا لم يتقلب ويصارع الحياة ؟! وكيف يشعر بالسعادة اذ لم يتعب ويعمل ؟!

وما رأيك يا (شوبنهور) لو تشاءمنا معك ، أنحل مشاكلنا ؟! ولمن نترك الحياة للعجماوات أو للجمادات ؟!

إن النظرة المتشائمة الى الحياة هي عين الخطأ

والالحاد ، لأن من لا إيمان له يرتبط به مع خالقه يحدد به مصيره وعمله ووظيفته التي وجد من أجلها حتماً لا ينظر الى الكون ويفسره إلا من الناحية السوداء القاتلة لروح الحياة وروح الانسان .

وقد يقول قائل : ـ إنه ما من شك في وجود الشر في العالم ، ووجوده يجعل كثيراً من الناس تتشاءم به ، فلو لم يكن له وجود لما كان هناك شيء اسمه تشاؤم .

الجواب : ـ

إن الشر موجود ولكنه ليس بذات حتى يكون السبب الرئيسي في تكوين عقدة التشاؤم ، بل أفعال الانسان هي السبب في ذلك . لانه أي التشاؤم ليس بضار ولا بنافع من جهة أنه مقرون بالعدم ، من حيث عدم وجود ذات له . ثم إن ليس كل الشر شراً بالفعل ، بل هناك شرور مفيدة ونافعة ، فالنار في ذاتها شر لانها مؤذية ومحرقة ومع ذلك لا يمكننا أن

نستغني عنها في حياتنا ، فهي تفيدنا في كثير من الاعمال والصناعات .

وهنـاك ايضاً الشر الفيزيقي أي الألم الجسماني ، وهو مع كونه شراً يفيد في كثير من الاحيان ، فقد يكون سبباً لمعرفة عوارض وعواقب اخرى جسمية كان يمكن أن تؤدي بحياة الشخص ، لولا الذهاب الى الطبيب .

يقول ابن سينا في كتاب (الاشارات ـ ما بعـد الطبيعة) : ـ

« كان على الله أن يحبس خيراً كثيراً تحرزا من شر كثير ، وذلك مثل النـار ، فإن منافعها جمـة ، وهي لا تفضل فضليتها إلا بحيث تؤذي ، أجل ان الشر كثير وليس أكثرياً ، كالأمراض فإنها كثيرة وليست اكثرية » .

وأما بالنسبة للتفاؤل فهناك التفاؤل المطلق والتفاؤل النسبي أو المعتدل . قال (سبينوزا) : ـ « لما كان العالم

ناشئاً من النمو الضروري للطبيعة الالهية ، فيلزم أن يكون حاصلاً على أعلى مرتبة من الكمال » .

وفي اعتقادي أن العالم ليس بكامل أو مطلق على حد تعبير (سبينوزا) ، بحجة أن المطلق أو الكامل لا ينبثق إلا عن كامل أو مطلق مثله ، لأن العالم متناه من حيث كونه محدثاً ، والله مطلق غير متناه من حيث كونه واجب ، وهناك مسافة لا متناهية بين العالم والمطلق الاول .

وبالتحديد لا يمكننا أن نحدد خير عالم لأنه مهما تصورنا وجود خير عالم يمكن أن يكون أحسن وأعظم منه ، بالزيادة في العمل والاصلاح والبناء .

نعم يمكن أن يكون العالم خير مصنوع بالنسبة لغيره من المصنوعات أو المخلوقات .

قال أفلاطون في محاورة (تيماوس) : ـ

« إن الله خير الموجودات فليس يمكن أن يكون

قد صنع إلا خير مصنوع ».

وأما التفاؤل النسبي أو المعتدل فهذا ما سنعرفه الآن ، وهو الذي ينبغي أن يتفاءل به الانسان المسلم وغيره .

- موقف الإسلام من النظرات الثلاث : -

المتشائمة - المتفائلة - المعتدلة .

يقف الاسلام حيال هذه النظرات الثلاث موقف الاعتدال ، لا التشاؤم المطلق ولا التفاؤل المطلق .

والاسلام عندما يرفض التشاؤم ، يرفضه لانه قمة الخطأ البارز في الحياة ، ولان الله تعالى خلق الانسان لاجل أن يعمل ويبني هذا الكون بنظرات متفائلة تسعى الى الخير والمحبة وإقامة عدل السماء على الارض ، وبنظرات تسعى الى تطوير وتجديد الحياة من سيء الى أحسن ، ومن أحسن الى الاحسن .

والا اذا كان الاسلام يحث الانسان على التشاؤم ،

فما معنى كونه خليفة لله على الارض ؟! ان الخلافة تعني تجسيد القيم والحضارة الانسانية البنّاءة ، والدعوة الى العمل والتطوير والتفاؤل في جميع مجالات الحياة .

وهذا ما لا يمكن أن يتحقق إذا كانت خلافة الانسان ممزوجة بروح التشاؤم .

(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلاَئِكَةِ إِنِّيْ جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيْفَةً) . سورة البقرة ـ ٣٠ ـ .

ولنحاول معاً استعراض بعض الآيات الكريمة كدليل على دعوة الاسلام الى التفاؤل من خلال دعوته الى الخير والقول الحسن والاصلاح بين الاخوة ، والانفاق والعفو عن الناس .

١ ـ دعوة الاسلام الى الخير : ـ

(يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا اركعُوْا واسْجدُوا واعْبُدُوا رَبَكُم وافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُوْنْ) . سورة الحج ـ ٧٧ ـ .

٢ ـ دعوته الى الاصلاح بين الاخوة .

(إنّمَا المُؤْمِنُونَ أُخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم). سورة الحجرات ـ ١٠ ـ .

٣ ـ دعوته الى الانفاق والعفو عن الناس .

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّراءِ والضَّرَّاءِ وَالكَاظِمِينَ الغَيْظِ والعَافِينَ عَنِ النَّاسِ واللهُ يُحِبُ المُحْسِنِينْ). سورة آل عمران ـ ٣٤ ـ .

٤ ـ دعوته الى القول الحسن .

(وقُلْ لِعِبَادِيَ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) سورة الاسراء ـ ٥٣ ـ .

وقد ورد في الحديث الشريف : تفاءلوا بالخير تجدوه .

هذا بالاضافة الى العديد من الآيات والأحاديث التي تدل على وجوب التفاؤل ، لم نستعرضها تجنباً للتطويل .

ومن المعلوم أن كل هذه الآيات المذكورة التي هي من وحي الاسلام هي من روح الدعوة الى التفاؤل وواقعها .

وعلى هذا تتفند الشبهة الدينية التي أشرنا اليها سابقاً ، والتي تقول بان الدين الاسلامي أو الدين ككل يدعو الى التشاؤم .

ويؤسفني أن أقول ان معظم الشباب وأكثر الناس يعتقدون هذا الاعتقاد الخاطىء من دون فهم ولا اطلاع على حقيقة الدين وجوهره .

ولا أريد أن أخوض في هذا المجال لأنه ليس موضوع بحثنا ، والذي اريد أن أقول هو أن الدين لا يرفض الدنيا ولا التمتع فيها ، بل يحدد للانسان كيفية العيش فيها بسعادة واطمئنان وتوازن .

وأما الاسباب التي تجعل الانسان متشائماً في حياته فان الاسلام لا يعتبرها حواجز مطلقة لا يمكن ازالتها

بـل حواجز نسبية تزول وتتغير طبقاً لتبدل وتغير الظروف الاجتماعية .

وطالما أن الأسباب تزول والظروف والنفسيات تتبدل وتتغير فتدعو الانسان الى التشاؤم تارة والى التفاؤل طوراً آخر ، فمن الأفضل له أن يتفاءل دائماً ويجدد نظرته التفاؤلية الى الحياة كلما حاول أن يتشاءم لئلا يصل الى عقدة التشاؤم الوخيمة التي تصل بصاحبها الى اليأس وفقد الأمل بالله وهو الكفر بعينه .

وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى :ـ

(ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون [١]) .

أضف الى ذلك أن التشاؤم يصل بالانسان الى قتل نفسه والانتحار بعد اليأس من كل شيء .

---

(١) سورة يوسف ـ ٨٧ ـ

قال تعالى : (ولا تقتلوا انفسكم ان الله كان رحيماً [1]) .

وعلى هذا نعرف أن النظرة التشاؤمية الى الحياة نظرة قاتلة وخاطئة تبدأ بتشاؤم صغير يبدأ بالنمو في الانسان حتى يصل الى التشاؤم في جميع الامور ، ومن ثم الى اليأس ومن ثم الى الكراهية من الحياة والانتحار ، وهذا ما نقرأ عنه كثيراً في الصحف والمجلات .

وقد يقول قائل : إن قولك بالطريق الوسط أو الاعتدال في النظرة الى الحياة ، يعني أن هناك تشاؤماً في الاسلام ، لأنـــك عندما تقول باللاتفاؤل الكلي واللاتشاؤم الكلي تشير بذلك الى وجود تشاؤم ولو كان هذا التشاؤم بسيطاً وهذا ما لا نوافق عليه لأنه خلاف ما يدعو اليه الاسلام وهو يرفض مطلق التشاؤم الكلي حتى الجزء البسيط منه .

---

(١) سورة النساء ـ ٢٨ ـ

أن هذا الاعتراض صحيح في الظاهر كما قد يبدو لأول وهلة ، ولكنه باطل في حقيقته وجوهره ، لأن التشاؤم البسيط الذي أقصد ليس تشاؤماً بمعنى التشاؤم لأنه لا تشاؤم في الاسلام ولو بمثقال ذرة ، والتشاؤم الذي أقصد هو من باب التسمية لا أكثر ، وهو لا يعتبر تشاؤماً إذا قارناه بالتشاؤم الفعلي .

مثال ذلك : —

إذا أردت أن أسافر الى ألمانيا مثلاً لأتعلم الطب ففي مثل هذه الحالة أضع احتمال التوفيق واحتمال عدم التوفيق، ومع ذلك أذهب متفائلاً بالتوفيق ، فهذا الاحتمال بعدم التوفيق هو الذي أقصد وهو ليس بتشاؤم كلي من ناحية لأنه يحمل معه تفاؤلاً ، وليس بتشاؤم فعلي نسبي إنما هو تحسب للنتائج السلبية التي يمكن أن تحصل . وهكذا جميع الامور التي يريد أن يقوم بها الانسان فإن احتماله لعدم التوفيق من جهة والتوفيق من جهة اخرى لا يبرر وجود تشاؤم نسبي لان جهة عدم التوفيق هي من باب التحسب لا من باب التشاؤم ، واطلاقي على

هذه الجهة بالتشاؤم المعتدل أو النسبي من باب التسمية لا أكثر .

وخلاصة الاعتقاد بالنظرة المعتدله الى الحياة ، هي أن التفاؤل الكلي يجعل الانسان يعيش في إطـــار الاحلام السعيدة والخيال البعيد عن الواقع ، وهـــذا النوع من التفاؤل الكلي غير محمود ولا يؤيده الاسلام لان فيه بعد أمل ورجاء بعيد ، وقد يصل بصاحبه الى التقاعس عن العمل والعيش في إطار الجنات السعيدة .

وأما التشاؤم الكلي ، فهو يجعل الانسان صاحب نظرات سوداء لا تبني بل تهدم ، والقصد النسبي الذي قد يتوهم أني قد اعتبرته وأخذته من التشاؤم الكلي هو من باب التسمية لا أكثر المقابلة لاحتمال عدم التوفيق فاحتمال عدم التوفيق هو الذي اعتبرته تشاؤما نسبياً وضممته الى النظره الاعتدالية الى الحياة وهو كما ترى من باب التحسب في الامور لا من باب التشـــاؤم النسبي الفعلي .

نفسيات أمام معجزة

كانت المجتمعات البدائيه في العصر الأول ، منعدمة الحضارة والتقدم حتى في التفكير والسلوك .

وكان ما حدث أن بدأت المجتمعات تتطور وتتقدم شيئاً فشيئاً حتى ظهرت الثورات الصناعية والفكرية ، وبدأت الاكتشافات الجغرافية والعلمية ، الى أن وصلنا الى ما نحن عليه الآن من الرقي والحضارة والتقدم .

ولا زالت اختراعات الانسان تزداد واكتشافاته العلمية المتنوعة تنمو وتتطور حتى ظهرت المعجزة العلمية في مجال الطب ، إن صحت التسمية ، الى حيز الوجود ، فكانت حدثاً علمياً رائعا وتقدماً عظيماً في مجال العلوم والاكتشافات العلمية ، وهذه المعجزة هي

معجزة (طفلة الانبوب) « لويزا » .

هذه المعجزة تحققت على أيدي العالمان البريطانيان « باتريك ستبتو » و « روبرت أدوارد » بعد تجارب عديدة كانت قد باءت بالفشل .

وهذا حديث موجز عن ذلك : ـ

إن هذا الانجاز الذي تحقق قد يبدو بسيطاً لأول وهلة ، ويعترف الدكتور (ستبتو) بأنه من حيث النظرية والتكتيك الذي استخدمه شيئاً بسيطاً يمكن للإنسان العادي أن يفهمه جيداً ، ولكن الصعوبة كل الصعوبة في التنقيذ ، وهي صعوبة كانت حتى شهور مضت تعد ضرباً من المستحيل .

كانت المشكلة التي بدأ الدكتور (ستبتو) بمواجهتها هي حقيقة أن انسداد قناتي فالوب في المرأة يمنع وصول الحيوانات المنوية الى البويضة ، وبالتالي لا يحدث الحمل ، وهذا الانسداد أسبابه عديدة ولكن

التعرض للتلوث يعد السبب الرئيسي ، هذا فضلاً عن أن هناك أيضاً أسباباً وراثية .

كذلك فان الضغط العضلي يمكن أن يؤثر بالسوء في قناتي فالوب ويمكن أن يحدث الانسداد بصورة متكررة إذا انثنت القناتان أو احدهما ، نتيجة حدوث جرح في منطقة الحوض ، ناشئة إما عن اضطرابات تناسلية أو بسبب جراحة سابقة ، كما يمكن إجراء جراحة لإزالة أو علاج هذا الانسداد ، ولكن مثل هذه الجراحة دقيقة للغاية حيث أن الجدران العضلية في المنطقة تجعل القناة تبدو وكأنها أكبر سمكاً من حجمها الطبيعي .

ولما كانت قناتا فالوب تربطان ما بين المهدب الذي يتلقى البويضة من المبيض ، وما بين الرحم الذي تصل إليه البويضة بعد رحلة تقطعها على مدى ثلاثة أيام توصف خلالها بأنها « البويضة الطفيلية » لأنها تقوم طبيعياً بتغذية نفسها من خلايا جدران ممر قناتي فالوب فإن سيدات ليست لديهن هاتان القناتان ـ بمعنى انهما

مصابتان بصورة جزئية أو كلية قد تم إزالتها جراحياً لا يمكن أن يحملن .

ولقد كان التكتيك الذي استخدمه الدكتور (ستبتو) يقوم على أساس أخذ البويضة وتلقيحها داخل انبوبة اختبار وابقائها حية خلال الفترة التي كان من المفروض فيها أن تسلك طريقها عبر قناة فالوب ثم القيام بعد ذلك بزارعتها ، وقد تخطت مرحلة البويصة الى بداية مرحلة الأجنة في رحم الام . وكانت أول حطوة يتعين أن يخطوها هي تحديد مكان البويضة ، وأمكنه تحقيق ذلك عن طريق احداث شق صغير واستخدام منظار البطن ، بوضع قضيب مصنوع من مـادة الكوارتز في الشق يسمح بإعطاء ضوء قوي بارد ، أمكن (ستبتو) رؤية وتحديـد مكان البويضة بواسطـة تليسكوب ذي خصائص تمكن الانسان من النظر بزاويا مختلفة .

وفي هذه الأثناء كان الدكتور (روبرت ادوارد) قد توصل الى إمكان تهيئة الظروف العملية اللازمـة للتخصيب والمحافظة على البويضة حية .

وكان الدكتور (ستبتو) خلال تجاربه العديدة على ٣٥٠ سيدة قبل السيدة (براون) ، قد توصل الى كيفية معينة لاعداد الحيوانات المنوية والاحتفاظ بها .

وكان يقوم بوضع البويضة مرتين أو تلاث مرات في سائل خاص ثم توضع في قطارة صغيرة جداً بهـــا حوالي ١٠ بالمائة من المليمتر من السائل المنوي ، وعند حدوث التلقيح تؤخذ البويضة الملقحة وتوضع في سائل خاص ، وعندما تبدأ خلايا البويضة في الانقسام يبدأ الاستعداد لزرعها في الرحم ، وعندما تصل الخلايا الى العدد ٣٢ أو ٦٤ يمكن حينئذ زرعها في الرحم عن طريق المهبل . ومع التجربة رقم ٣٥١ (ليسلي براون) تحقق النجاح الذي دخل به الدكتور (ستبتو) تاريخ الطب من أرسع أبوابه[١] .

وعلى هـــذا نجد أن العملية واجهت مشكلتـان أساسيتان هما : ـ

---

(١) مجلة الشباب وعلوم المستقبل العدد الثاني ـ السنة الثانية .

١ ـ القدرة على إبقاء النطفة حية خارج الجسم .

٢ ـ القدرة على إبقاء واستقرار النطفة في الرحم من ناحية ، والقدرة على اعطائها القوة على الالتصاق به طوال فترة الحمل .

وقد تغلب الطبيبان على هاتان المشكلتان بوضع البويضة في سائل بعد تلقيحها يضمن بقاءها حية مع تطوير السائل بتبديله بين فترة واخرى .

وبالحصول على البويضة القادرة على عملية التلقيح الخارجي .

ومن الطبيعي أن يكون هذا الحدث التاريخي في عالم الطب ، قد أحدث تغييراً وأظهر مواقف في نفوس البشر ، فأصحاب الايمان الضعيف تكون قد ضعفت نفسياتهم أكثر فأكثر ، وأصحاب الفكرة الالحادية قد اتخذوه انتصاراً كبيراً على الدين لفصلهم بين العلم والدين . وأما أصحاب النفوس المؤمنة الواعية فهم الذين قويت نفوسهم وقوي ايمانهم لأن مثل هذا

الحدث دليل على قدرة وعظمة الخالق ، في خلق خلقه ، ودليل على قوة العلم الذي أعطاه الله سبحانه وتعالى للانســـان . (عَـلَّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْـلَمْ) . العلق ـ ٥ ـ

وهذا ما سنوضحه فيما يلي .

ـ موقف ألاسلام من المعجزة : ـ

من الطبيعي أن يكون للاسلام موقف اتجاه كل حـــدث اجتماعي أو تاريخي أو علمي أو اقتصادي أو سياسي أو أي أمر من امور الحياة الواقعية ، باعتباره عقيدة وفكر ونظام ، فلا بد لهذا النظام وهذا الفكر وهذه العقيدة ، لا بد لهم أن يطرحوا أنفسهم في حال عدم وجودهم على الساحة الاجتماعية من حيث الممارسة الفعلية ، كممارسة أي نظام حاكم صلاحياته وفرض أحكامه ، وذلك لبيان وجه الحقيقة واثبـاتها ونقض الشبهات التي يمكن أن تفرض على ألدين أو تحاك ضده بشكل عام ، وعلى الاسلام بشكل خاص ، لأنـه هو

الوحيد الذي يطرح نفسه كنظام للبشرية وكممارسة فعلية يدعو إليها دائماً خلافاً للمفهوم المسيحي الذي يفصل العلم عن الدين والعقيدة عن النظام والواقع ، ويعطي ما لله لله وما لقيصر لقيصر .

ومن أجل ايضاح الموقف الاسلامي من معجزة القرن معجزة الانبوب ، لا بد لنا أولاً من ايضاح النقاط الآتية : ـ

١ ـ النقطة الاولى :

ان الدين والعلم توأمان لا ينفصلان ، فلا العلم يرفض الدين لأنه طريق الى الايمان ، ولا الدين يرفض العلم ، لأنه لا يمكن معرفة الدين والايمان به إلا على ضوء العلم ، فالاثنان اذن مكملان لبعضها البعض .

٢ ـ النقطة الثانية :

ان الظواهر والقوانين الطبيعية موجودة في هذا العالم الكلي ، وموضوعة بطرق سليمة وصحيحه ،

والانسان في بحثه العلمي يكتشف من خلال بحوثـــه العلمية وا كتشافاتـــه ، أشياء كثيرة مجهولة لم تكن معروفة لديه سابقاً .

وهـذا يعني أن الانسان حينما يعرف قانوناً ما ، يكون قد ا كتشفه ولم يخلقه أو يصنعه ، (فنيوتن) عندما رأى التفاحة تسقط من فوقه من الشجرة ، أدرك أن هناك قوه جاذبة أسقطتها ، وسمى تلك القوة الجاذبة بقانون الجاذبية وهو في هذه الحال لم يخترع قانوناً بل ا كتشف قانوناً كان مجهولاً لديه سابقاً ، وهكذا بالنسبة لسائرالقوانين الطبيعية الاخرى، فان الانسان استطاع أن يكتشف العديد منها ولا يزال قادراً على أن يكتشف أكثر وأكثر ، ولكنه لم يخلق أو يصنع قانوناً طبيعياً في يوم من الأيام .

فهناك إذن فرق بين الخلق والاكتشاف . وهـذه ملاحظة جديرة بالانتباه .

٣ ـ النقطة الثالثة :

ان الانسان لا يمكن أن يخلق أو يوجد معدوماً لعجزه عن ادراك الصلات وكنهها بين الأشياء والظواهر الطبيعية .

والنقطة الاولى لا خلاف فيها ولا نقاش، وكذلك النقطة الثانية ، ونوضحها بمثال بسيط أيضاً . ان الماء يحتوي على عنصرين الاوكسجين والهيدروجين ، والانسان قد اكتشف ذلك ولكنه لم يوجده ويضع فيه ذينك العنصرين، بل هما موجودان قبل معرفته بذلك وهكذا سائر القوانين الاخرى، إنما تكتشف ولا تصنع .

وعلى ضوء هذا يتضح الفرق بين الايجاد والخلق . وأما النقطة الثالثة هي التي تقع موضع النقاش ولهذا نقول ان الانسان يستطيع أن يجمع ظواهر الأشياء وتعطيه نفس النتيجة التي تعطيها الظاهرة الطبيعية ، ولكنه لا يمكنه إدراك العلاقة أو الصلة بينها ، لأن ادراكها لا يدخل في إطار الحس والتجربة ، وما يراه الانسان ويلاحظه في حال جمعه لظواهر الأشياء لإعطائه النتيجة المطلوبة ، إنما

هي ألوان من التتبع والاقتران ، فهو يلاحظ أن هذه مثلاً تأتي من تلك ولا يلاحظ العلاقة بين هذه وتلك لأنه لا يمكن ادراكها حسياً .

وقد بحث العلماء قديماً وحديثاً في هذا الأمر ، ولم يعرفوا من أين تنبع هذه العلاقات بين الأشياء ؟! وما الغاية من وجودها ؟! ولم يتوصلوا إلى شيء ولم يقع تحت أيديهم سوى عمليات من الاقترانات والتعقيبات بين ظواهر الأشياء . وأصحاب الفلسفة المادية وحدهم هم الذين يصرون على أن العلاقة بين الظواهر مادية وأنها حتمية ، مع أنهم لا يدركونها ولا يدركون دستورها .

وأكد الفلاسفة المسلمون أيضاً ، قديماً وحتى اليوم أنه لا يمكن للإنسان أن يضع يديه في ضوء العلم إلا على اقترانات وتتابعات قائمة بين ظواهر معينة ، كما أكد ذلك أصحاب الفلسفة الوضعية ومنهم (باركلي) و (دافيد هيوم) .

وقال هيوم : ــ إني أرى كرة البلياردو تتحرك

فتصادف كرة اخرى فتتحرك هـذه وليس في حركة الاولى ما يظهرني على ضرورة حركة الثانية ، والحس الباطني يدلني على أن حركة الأعضـــاء في تعقب أمر الإرادة ، ولكني لا أدرك به إدراكاً مباشراً علاقـــة ضرورية بين الحركة والأمر .

وهو على هذا الأساس أنكر مبدأ العلية لعـــدم إدراكه للعلاقة القائمة بين العلة والمعلول ، وقال بمبدأ التعاقب .

إلا أن أنكاره لمبدأ العلية لم يحل المشكلة لأنـــه قانون عام . ومن هذا نستنتج عدم القدرة على معرفة وإدراك حتمية العلاقة بين الأشياء لأنه أمر غيبي ، أمر لا يمكنه ادراكـه حسياً .

ولنتأمل التعبير القرآني عن هـــذه الحقيقة في قوله تعالى : ـ

(وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيبِ لاَ يَعلَمُهَا إِلاَّ هُوَ)
سورة الانعام ـ ٥٩ ـ

وهنا ينبغي أن نلاحظ الفرق بين الغيب ومفتاح الغيب .

الغيب هو ما يمكن أن يحدث ويظهر في المستقبل .

ومفتاح الغيب هو ما لا يمكن ملاحظته وظهوره بل هو الدستور الخفي . فالخسوف أو الكسوف مثلاً يمكن التنبؤ بأحدهما قبل حدوثه استناداً إلى الوسائل العلمية والفلكية المختلفة ولكن لا يمكن معرفة العلاقة أو الصلة بين الخسوف أو الكسوف مثلاً وبين إماراته ، الزلزال أيضاً يمكن معرفة حدوثه وهذا أمر غيبي كما أن معرفة الخسوف أو الكسوف أمران غيبيان ، ويمكن معرفة حدوث ذلك الغيب (الزلزال) استناداً إلى إمارات ولكن لا يمكن معرفة الصلة وحتمية العلاقة بين حصول الزلزال وأسبابه ، وهكذا نلاحظ أن القرآن الكريم أو الله تعالى قد سلب عن الانسان معرفة مفاتيح الغيب ، ولم يسلب عنه معرفة الغيب استناداً إلى الامارات على ذلك .

وهذا الأمر بالضبط يمكن تطبيقه على معجزة القرن ، معجزة الانبوب . فإن ما حصل أمر ممكن وواقعي ، ولا مانع من أن يتوصل الاطباء قريباً إلى معرفة نوع الجنين أهو ذكر أم انثى منذ الأيام الاولى للحمل ، وهذا حلم يراودهم منذ زمن غير بعيد ، أقول لا مانع من ذلك ، لأن حادثة أو معجزة الأنبوب ونحوها من الامور التي لم يتوصل إليها الطب بعد ، إنما تتوقف على تتبع القرائن والأسباب وجمعها في جو ملائم لها ، طبقاً للجو الملائم للحالة الطبيعية .

ومعجزة الانبوب تحققت على ضوء ذلك ، بعد محاولات عديدة وشاقة ، وما فعله الأطباء إنما هو جمعهم وتهيئتهم الأسباب والظروف الملائمة لأسباب وظروف عملية النمو والتلقيح الطبيعي ، خارج الرحم ومارسوا نفس العمليات التي تجري داخله ، مارسوها خارجه في إطار الجو والمناخ الاصطناعي المناسب للجو الطبيعي ، وتحقق الحلم وظهرت المعجزة .

ومع هذا كله فإن العلماء لا يمكنهم أن يدركوا

حتمية العلاقة بين هذه الظروف والأسباب التي أدت إلى نجاح العملية . والذي يمكنهم أن يدركوه هـــو الاقتران والتعاقب الذي يجري بين الظواهر والأسباب الطبيعية .

وعلى هذا فإن ادراك الصلة يعني معرفة مفتاح الغيب ، ومعرفة مفتاح الغيب يعني التحكم في طبيعة الشيء وهذا ما لا يمكن أن يحدث أبداً لأن الانسان ليس من قدرته وطبيعته أن يتحكم بقـدرة الله الذي أعطاه تلك القدرة وتلك الطبيعة على العمل والاكتشاف والابداع فيما هو ممكن وتحت قدرته .

ومن هـــذا القبيل التحكم بنوع الجنين ، بحيث يستطيع الانسان أن يحوِّل الذكر الذي سيـــأتي إذا استطاع معرفته قبل ولادته ، إلى انثى أو العكس ، وهذا أمر مستحيل وهو قـادر على أيسر من ذلك ، والله هو القادر على قطع الصلة على من ليس بيده ملكوت وزمام كل شيء وهو الانسان ، ويفسد الأمر عليه ، لأنه ليس من مشيئتهوقدرته .

وفي اعتقادي أن الانسان في النهاية قد يتوصل الى انجاب أطفال صناعيين من دون حاجة الى عملية التوالد الزواجي البشري أو الاتصال الطبيعي ، فيكتفي بالاتيان بنطفة من رجل ما وبُبويضة من امرأة ، ويلقحان في خارج الرحم ثم يوضعا في رحم امرأة أجنبية ، أو يتم ذلك كله حتى نمو وظهور الطفل خارج رحم المرأة ، بل حتى لن يكون اليه أي للرحم حاجة في حال إنشاء جو مناسب صناعي كجو الرحم ، ويصبح بإمكان الانسان أن يشترى أولاد صناعيين ، ويصبح أيضاً لدينا مجتمع صناعي مكون من عالم صناعي من دون حاجة إلى زواج أو اتصال طبيعي .

وفي هذه الحالة لن تعود تعرف الأبناء من الآباء ولا البنات من الامهات ، وتصاب الاسرة بالتفكك والإنحلال كما يصاب بذلك المجتمع أيضاً ، وتقع حينئذ المشكلة الاجتماعية الكبرى ، كل ذلك تحت ستار التطور والتقدم .

- ما هو مصير الله اذا استطاع الانسان أن يخلق انساناً مثله ؟!

أقول وأكرر ما قلت سابقاً ، إن الانسان بمقدوره أن يجمع بين ظواهر الأشياء ويأتي بالنتيجة التي تعطيها الظواهر الطبيعية ، ومعجزة الانبوب ونحوها من هذا القبيل ، مقارنة وتتبع للظاهرة الطبيعية ، وجمع لها خارج إطارها الطبيعي ، ومن المعلوم أن تنتج نفس النتيجة التي تنتجها تلك الظاهرة الطبيعية ، وهذا ليس بخلق إنما هو اكتشاف وتتبع وتقارن وجمع ، للحالة أو للظاهرة الطبيعية الأساسية .

إن الانسان يستطيع أن يصنع الانسان الآلي ، ويضع له العقل الالكتروني ويجعله يسير ويعمل ، ولكنه لا يستطيع أن يجعل فيه الروح والدم والاحساس الروحي والعاطفي وما إليها من الأحاسيس الإنسانية لأنه لو كان يستطيع ذلك لفعل .

ولنفترض أنه أستطاع أن يجعل له الدم والاحساس

والتفكير ، فمن اين ياتي له بالروح ؟! مع العلم أن الروح هي المصدر لجميع الإحساسات والإنفعالات ، فلا يمكن أن توجد بدونها ! .

ثم إن الانسان قد يستطيع أن ياتي بالخلايا الحية التي هي مستودع الحياة ويضعها في انسان ما ، قد خلى منها تقريباً وكاد أن يموت ، ولا مانع من أن يتوصل الى ذلك ، إذا لم يكن قد توصل اليه الآن ، وتستمر حياة ذلك الانسان طبيعياً ، كما هو الحال في تطويل أعمار الحيوانات وحتى عمر الانسان الذي هو ممكن من الناحيه النظريه ، حيث أصبح قانون إطالة الأعمار ، قانوناً مرناً يطبق .

أقول ان هذا ممكن ومعقول علمياً وعقلياً ، ولكن القضية الأهم من ذلك هي خلق الخلية ، إعطاء الحياة لها بعد موتها . إن الانسان كما قلنا يستطيع أن يجمع ويأتي بما هو موجود وفيه الحياة ويجري العمليات عليه وينجح ، ولكنه لا يستطيع أن يخلق أو يوجد الحياة لمن فقد منها .

واذا كان الانسان يستطيع أن يخلق إنساناً مثله ، فهذا يعني أنه يستطيع أن يصنع خلية أو خلايا ، وهذا ما لا قدرة له عليه لأن الخلايا هي مستودع الحياة في الانسان ، فمن أين يأتي لها بالحياة ؟! يستطيع الانسان أن يصنع خلية مشابهة جداً للخلايا الطبيعية ، ولكن كيف يحيها ويعطيها الفاعلية لممارسة دورها الطبيعي كما تمارسه الخلايا الطبيعية ؟! إن هذا ما يعجز عنه الانسان فعلاً .

ولنتواضع قليلاً عن الخلايا وننزل إلى ما هو أقل مستوى ، هل يستطيع الانسان أن يخلق ذبابة ، إنه يقدر أن يأتي ببيوض الذباب ويجري عليها العملية التي يتم من خلالها صنع الذباب ، على ضوء العملية الطبيعية التي يقوم بها الذباب للإتيان بصغاره ، وهو في هذه الحالة يجمع البيوض ويمارس نفس العملية الطبيعية التي يقوم بها الذباب ، ولا مانع حينئذ أن ينتج صغار الذباب .

أكرر بأن هذا ليس بخلق بل هو تتبع واقتران

وجمع للظواهر الطبيعية وحالاتها .

وصدق الله تعالى حين قال : ـ

(يَا أَيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعوا له ، إنَّ الَّذِيْنَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله ، لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا لَوْ اجْتَمِعُوا لَهُ ، وإنّ يَسْلُبهم الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوْنَهُ مِنهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبْ) . سورة الحج ـ ٧٣ ـ

وعلى هذا أقول لأصحاب النفسيات المؤمنة منها إيماناً حقيقياً والمؤمنة منها إيماناً شكلياً ضعيفاً ، ولكل من تنهار نفسه أمام تقدم العلم وتطوره ، أقول إن ما يقدمه لنا العلم ليس سوى دليل على عظمة الخالق والاقتراب منه أكثر هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى إن الانسان المعاصر اليوم يكشف لنا عن طريق العلم الذي توصل إليه مجهولات كثيرة مدهشة ويقدم لنا اختراعات عديدة وعجيبة أيضاً ، وما ذلك إلا اكتشاف لموجود لا إيجاد لمعدوم .

بمعنى أن العلم يكشف لنا ويعرفنا مجاهل لم نكن نعلمها من قبل ، ولا يخلق لنا أشياء كانت معدومة ثم أوجدها .

العالم مليء بالقوانين والنواميس الطبيعية ، إلا أن الانسان لم يوجدها إنما اكتشفها ، وهكذا ، فالذرة مثلاً موجودة في الكون من حين ما وجد ، والانسان لم يكن يعرفها ويستغلها لخدمته لولا ما توصل إليه من العلم ، فالعلم إذن اكتشف الذرة ولم يوجدها .

فالحقيقة إذن ينبغي أن توضع في الذهن على الشكل الآتي :ـ

(إن العلم يكتشف موجوداً لم يكن معلوماً سابقاً لدى الانسان ، ولا يوجد معدوماً) لأن الخلق والايجاد ليسا من قدرة الانسان .

وقد يقول قائل :ـ

لماذا لا يؤمن الانسان بالله وخاصة العالم الاوروبي

والغربي والشرقي ، مع أنه توصل الى مرتبة عالية من العلم ، مع العلم أن العلم يدعو الى الايمان .

الجواب : ـ إن هناك العديد من الأطباء المؤمنين بالله ، ولا يسعني الآن أن عدد أسمائهم ، ولكن السبب الرئيسي في الالحاد مع هذا التقدم في العلم ، إنما هو لطغيان النزعة المادية المحضة على تفكير وسلوك الانسان المعاصر ، ظناً منه أنه باختراعاته واكتشافاته قد أنزل إله السماء الى الأرض ، أضف الى ذلك أن التجارب العلمية أصبحت تعلل أسبابها بأسباب مادية ، في الوقت الذي تكون فيه دليلا على وجود الله وعظمته ، وما ذلك إلا لذلك التفكير المادي وتلك النزعة المادية المحضة .

مثال ذلك من علم النفس : ـ

أظن أن كلنا قرأ وأصبح يعلم قصة الكلب وتجارب (بافلوف) عليه . حيث عود الكلب على دق الجرس عند تقديم الطعام اليه ، وعند تكرار هذه العملية عدة مرات ، أصبح لعاب الكلب يسيل بمجرد سماعه

لدق الجرس ، وهذا ما يسمى في علم النفس بنظرية المنبهات والمنعكسات الشرطية .

فدق الجرس منبه للكلب ، وسيلان اللعاب منعكس شرطي أي مشروط بدق الجرس .

فهذه النظرية وأمثالها تفسر السلوك الحيوي أو الغريزي تفسيراً مادياً ، وتجعله نتيجة لمنعكسات ومنبهات شرطية ، بحيث تنكر الدور الإلهي في ذلك ، ولو أردنا إثباته لقلنا :—

إذا كان السلوك عند الحيوان لا يثار إلا بسبب آلي خارجي ، فكيف ولأي سبب يفتش الحيوان عن طعامه وغذائه من حين ما يوجد من دون أي منبه شرطي ؟! أليس هو شعوره بالجوع الذي هو حاجة فطرية غريزية ؟!

ثم إن الافعال الشرطية ليس فيها مواضع للإدراك والشعور ، فكيف نجد ذلك في كثير من الحيوانات ؟

وهكذا نجد الكثير من التجارب والنظريات العلمية تنكر الدور الآلهي فيها، وتعلل بالأسباب المادية لإنكار وجود الخالق ، وما ذلك إلا للاعتقاد الساذج بالوهية الانسان على الارض باكتشافاته واختراعاته ، وسيطرة النزعة المادية على التفكير والسلوك كما قلت سابقاً .

نظرات في الاحكام الوضعية

لقد توصل العالم الحضاري اليوم إلى مرحلة عظمى من التقدم العلمي والتكنولوجي ، ولا يزال حتى اليوم يطور ما اخترعه وأنشاه ، طبقاً لطموح الانسان نحو الكمال الانساني ، من أجل تامين حياة الرفاهية والطمأنينة .

ولم يكتفي الانسان الحضاري بتطوير الوسائل المادية التي اخترعها وأنشأها فحسب ، بل أنشأ أنظمة وقوانين تتفق مع تطوره الحضاري ، كضمانات للحياة السعيدة التي يطمح اليها ، وكضمانات لبقاء الحضارة التي أوجدها وأنشأها

وهنا محاولة لاستعراض بعض الأنظمة الوضعية ، ومناقشتها ، ليتبين لنا مدى فشلها وضعفها عن ردع

الانسان عن كثير من الجرائم وأعمال السلب والنهب والقتل وما اليها من أعمال مضرة بالجميع .

وتنقسم الأحكام الوضعية القانونية للعقوبات في المجتمع الغربي الى أقسام :

١ ـ العقوبات الطبيعية : ـ

وهي العقوبات الصادرة عن الطبيعة نفسها ، ولكنها ليست كجزاء أو كعقاب لأفعال الانسان ، لأن الطبيعة لا يمكن لها أن تعاقب أو تثيب ، وذلك كالحرارة والبرودة ، والكهرباء ، وما شابهها من امور اخرى كالرياح ونحوها .

٢ ـ العقوبات الاخلاقية : ـ

وهي عقوبات صادرة عن الضمير الأخلاقي الحي الموجود عند الانسان ، وهذه العقوبات تتمثل في والندم وتعذيب النفس وبمختلف الأساليب النفسية أو المادية في حال اقتراف الاثم ، وتتمثل في الفرح

والسرور والشعور باللذة الروحية في حال فعل عمل حسن .

٣ ـ العقوبات القانونية :

وهي العقوبات المبنية على المسؤولية القانونية أو المدنية ، إذ أن معظم أجتماعية في الطبيعة ، فالمجتمع إذن له الحق بأن يحكم ويعاقب على الأفعال التي تؤثر على المجتمع وتخل بتوازنه .

والاجتماعيون أمثال (فاوسونانت و (ديورك هايم) زعمو أن أية جريمة أو اهمال أو تقصير ، يؤدي الى إنحلال وتمزق المجتمع ، والمجتمع لا يمكن أن يستعيد نفسه من دون أن يصلح العطل الذي أخله ومن دون أن يذهب اللانظام ويحل محله النظـــام . وفي رأي القوانيين الاجتماعيين ، أنه ايجب أن يستعمل العقاب بفطنة وذكاء ، والخوف من الحكومة أمر مهم جداً ، ويلعب دوراً هاماً في تجسيد النظام وتثبيته ، ولكن الخوف الشديد يمكن أحياناً أن يؤدي الى اللاخوف .

هذا بالنسبة لأقسام العقوبات ، كعقوبات أساسية أولية مفروضة ، وأما ما يندرج تحتها من عقوبات جزائية مترتبة على الأفعال الانسانية الشريرة ، فهناك عدة أنواع منها :

١ ـ عقوبة الدفع والتعويض .

وهي العقوبة المرتبطة بالفكرة القاتلة ، بأن كل شيء يمكن أن يؤدي بتنظيم اجتماعي الى المحتـــاجين والعاطلين عن العمل لأسباب مرضية ونحوهـا بحيث تكون سبباً لعدم قدرته على تحصيل رزقه ، وهـــذا يمكن أن يحصل ويتم بشكل منظم من خلال الضريبة التي تفرض على كل عامل . ومهمة المجتمع هي تأسيس توازن بين الجيد والرديء أي بين الغني والفقير بمعنى آخـــر .

٢ ـ عقوبة القمع والقوة : ـ

وهي العقوبة التي تمارسها الدولة لحفظ هيكلها الاجتماعي ضد المخاطر التي يمكن أن تحصـل أو تمس

بسيادتها وكرامتها ، والعقاب هنا شديد وجرحي .

٣ ـ عقوبة التهديد :

وتسمى بالعقوبة المستقبلية ، وهي تقوم على تهديد الفرد ، وتحذيره من القيام بأي عمل مسيء للفرد أو الدولة ، بحيث يكون هذا التهديد بمثابة إنذار وإعطاء فرصة للتفكير قبل القيام بأية مهمة . وهذه العقوبة تخدم الخارجين عن القانون وأصحاب المشاكل والمشاغبات في حال عزمهم على القيام بأعمال منحرفة عن الخط المرسوم الموضوع من قبل الدولة .

٤ ـ العقوبة الصناعية :

وهي العقوبة التي تمارسها الدولة من أجل تعليم المجرمين مختلف الصناعات وتثقيفهم ، للاستفادة من طاقاتهم أثناء وجودهم في السجن ، ومن أجل تحقيق الأمان للمواطنين في نفس الوقت .

وهناك أشياء جزائية اخرى بسيطة تحدث بين

المواطنين ، كدفع المال لصاحب الحق في حال وقوع حوادث جزئية ، كوقوع حادث اصطدام سيارتين ، أو حدوث أي تلف أو ضرر مادي قصدي .

٥ ـ العقوبة الدينية :

وهي العقوبة التي توجد فقط في حال وجود الاله ، والانسان لا ينال عقابه أو ثوابه في هذه الحياة ، بل في حياة أخرى سماوية . وأشكال العقوبات هي الجحيم كعقاب ، والجنة كثواب .

وهذه العقوبة الأخيره هي العقوبة التي لا تؤمن بها الأنظمة الوضعية ، لأنها بعيده عن الواقع ومجرد خرافه .

ولذلك يقول الفلاسفة الغربيون وأصحاب الفكر الوجودي : ـ

« إننا كللنا مسؤولون عن الجميع حتى ولو كنا جميعاً مجرمين ، وفقط الله إذا وجد يمكن أن يكون

الحاكم الحق لجميع الجرائم والمسؤوليات ، ولكن الله له علاقة بعالم آخر الذي هو قرب القبر ، وكما أن الانسان يعيش فهو إذن يحتاج إلى بعض القوانين والقواعد ليؤمن الأمان ، وبعض التوازن في حياته ، على الأرض على الأقل » .

وهكذا نجد أن فكرة (الله) عند العالم الأوروبي الغربي غير واردة ، وهم يفترضون وجوده مجرد فرضية إذا كان يمكن لهذه الفرضية وجود . وحتى إذا كان هناك اعتقاد ، فإنهم يفصلونها عن واقع العمل الاجتماعي ويعتبرونها فكرة لا علاقة لها به ؛ لأنها فكرة أخروية تحمل في طياتها فكرة الجنة والنار ، هذا إذا كانت هناك جنة ونار ، فلذا هم يهملونها ويتركونها تعانق الأفكار الوهمية والخرافات .

ومن الطبيعي يصبح إذن الإعلان عن نظام انساني أي من صنع الانســـان ، يحتوي على أحكام وضعية فاشلة كما سنرى ذلك .

وعلى هذا ، فالمجتمع يبدو أنه هو القوة الوحيدة التي يمكن أن تؤمن هذا الأمان وهذا التوازن ، وهو القوة القادرة ليس فقط على المعاقبة بل على تركها أيضاً ، إذا اقتضى الأمر ذلك ، ولكن... ما هو هذا الحكم وما نوعه ؟! أهو رادع أم لا ؟!

إن العقوبات الطبيعية لا كلام فيها ، لأنها تنظيمات إلهية طبيعية خارجة عن قدرة الانسان ولا يمكن التحكم فيها .

والعقوبات الأخلاقية ليست سوى عقوبات صوفية منحرفة ، لا يمكن اتخاذها كمنهج للعقوبات النفسية منها والاجتماعية . نعم يمكن أن يرتدع المعاقب لنفسه عن فعل فعلٍ ذميم ، ولكن هذا لا يمكن لأي أنسان أن يمارسه كنوع من العقوبة المردعة ، ثم إن هذا النوع لا يكفل أو يضمن عدم ممارسة أي فعل مضر بالمجتمع أو حتى نفس الفاعل المرتكب له .

إضافة الى ان الصوفية كمذهب ، لا يقبله الإسلام

بل يرفضه لأنه مذهب روحي تجريدي بعيد عن الواقع الاجتماعي ، والرفض للمذهب يعني الرفض للعقوبات النفسية كقوانين عامة أو كممارسة شخصية. وأما العقوبات الاجتماعية أو القانونية الصادرة عن جهاز الدولة الحاكم ، فهي عقوبات غير رادعة ، أو فعالة ، وإلا إذا كانت رادعة وفعالة ، لماذا يعود السارق الى سرقته ؟ والقاتل الى القتل ؟ إن كثيراً من عمليات السرقة والقتل والنهب والسلب تحدث في البلدان الاوروبية الغربية ، وتتكرر أكثر فأكثر ، فأين القوانين الوضعية التي تمنع كل ذلك ؟!

إنها ليست سوى قوانين شكلية فقط فارغة لا أثر لها ولا تأثير .

وحسبك من الأعمال الشاذة الاخرى ، كعمليات الاغتصاب الكثيرة ، كما وإني قد سمعت قصة شاذة للغاية من جهاز التلفزيون الألماني أثناء وجودي هناك، بأن رجلاً قد اغتصب طفلة عمرها ثلاث سنين،وقد أجرت الحكومة معه مقابلة وهو في السجن وهو يعتذر عن هذا الفعل

ويقول بأنه لن يقرب بعد أية فتاة أو امرأة في حياته .
أين القانون الصارم الذي يمنع مثل هذه الأعمال المجرمة ؟!
ومن الذي يضمن عدم تكررها ؟!

وحسبك أيضاً من أعمال اللواط الأكثر شيوعاً من الزنا ، ولا يمكننا أن نعترض على العقوبة التي تواجه كل من يمارس اللواط ، لأنه قد أقر ذلك كقانون جائز بحيث يحق للفرد الذكر أن يتزوج ذكراً آخر . وقد حصل ذلك فعلاً في بريطانيا حيث تزوج اثنان ذكران بعضهما البعض زواجاً قانونياً وشرعياً .

وفي رأي واعتقادي أن العقوبة إذا لم تكن صارمة بعيدة عن أي منزلق عاطفي ، سوف يكرر المعاقب فعل ما ارتكبه مرة واثنين وثلاث وأكثر .

وما من حكم صارم وشديد يضمن عدم تكرر الأعمال المنحرفة في المجتمع إلا حكم الاسلام . إن قطع يد السارق والمراد منها ، قطع الأربعة أصابع دون الابهام . أمر ينبغي أن يطبق حتى لا يعود السارق

الى سرقته ، بل يكفي حينئذ ردع الناس عن السرقة فيما إذا رأوا يداً أو أصابع قطعت لأجل السرقة .

وكذلك قتل المغتصب ، ورجم اللائط ، وجلد الزاني وقتله إذا كان محصناً ، ورجم المساحقة وجلد المساحقة وغيرها من الأحكام الشرعية الاخرى ، كلها امور واقعية ولا بد منها ، حتى لا يصل فعلها ثانية ، والإسلام عندما يقرر مثل هذه الأحكام الصارمة ونحوها ، إنما يقررها لأنه يريد اقتلاعها من جذورها حتى لا يبقى لها أساس ولا يمكن للإنسانية أن ترتدع وتكف عن فعل الشر إلا بذلك .

ومن الطريف ما جرى أني وأحد الاخوة التقينا بشاب (سويسري) في منطقة من مناطق بيروت ، وجري الحديث معه بالانكليزية طبعاً حول الأوضاع في لبنان وتطرق أخي وصديقي إلى الحديث معه حول الاسلام ، وعندما سمع كلمة إسلام ، أشار فوراً بيده أمامنا مشير إليها بالقطع ، يعني أن الاسلام يقطع اليد .

أنظر من أية زاوية نظر إلى الاسلام ، من نظرة العنف والقوة وعدم الرأفة بالانسان ، لأنه يقطع الأصابع ولكن مع الأسف قد نسي أن في قطع اليد منع وردع لأية سرقة يمكن أن تحصل . لقد أثار عاطفته حكم قطع يد السارق أو أصابعه ، لأنه في نظره هذا هو اجرام وعدم رأفه بالانسان ، وهكذا ينظر المجتمع الغربي إلى قوانين الاسلام ، انها قوانين صارمة خالية من العطف والرأفة الانسانية ، وهي تتناسى بذلك نتائجها الايجابية الرادعة .

وما أجمل قول الله تعالى عندما يقول بالمماثلة في العقاب بقوله تعالى : ـ

(وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والاذن بالاذن والسن بالسن)[١]

إشارة إلى حق قلع عين القالع لعين شخص . وكذلك

---

(١) سورة المائدة ـ ٤٥ ـ

حق قلع السن بالسن والأنف بالأنف ، واللسان باللسان والاذن بالاذن ، والاصبع بالاصبع ، واليـــد باليد ، والجرح بالجرح ، والشفة بالشفة ، وما شابه ذلك من امور عقابية متماثلة .

(وَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُم فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُم) . سورة البقرة ـ ١٩٤ ـ

إن هذه الأحكام الالهيه ونحوها يمكن أن تفسر من ناحيتين : ـ

الاولى : ـ العدللة في العقاب بالمماثلة فيه .

الثانيه : ـ ردع الناس عن فعل الفواحش ونحوها .

فالانسان بطبيعته إذا لم يأخذ حقه ممن أذاه لا يركن إلى السكينة ولا تطمئن نفسه حتى يأخذ حقه منه . فإذا لم يستطع بوسيلة ما لجأ إلى الغدر والقتل وهذا ما تكون عواقبه وخيمة ، فلذا يكون من الأفضل وجوب أخذ الحق بالمماثلة لئلا يتطور الأمر ويتحول إلى الثار بالقتل .

ومن الطبيعي أيضاً ، أن من يرى أن فلاناً قد قطع يد أو أنف أو لسان شخص ، فقطعت يده أو أنفه أو لسانه ، أو أن فلاناً قد قلع عين أو سن شخص ، فقلعت عينه أو سنه ، أقول إنه من الطبيعي أن يرتدع كل انسان يرى مثل هذه العقوبات لأنها عقوبات صارمة وجازمة .

وأما بالنسبة للعقوبات الجزائية ، فعقوبة الدفع والتعويض هي بمثابة الخمس والزكاة التي تعطى للفقراء والمحتاجين ، من أجل إيجاد التوازن الاجتماعي في المجتمع كقوانين اجتماعية وضمانات لحاجات الافراد في المستقبل . وهناك أساسان للضمان الاجتماعي للفرد في الاسلام :

١ ـ التكافل العام وهو الذي يفرض على المسلمين كفالة بعضهم البعض بمقتضى إخوتهم العامة وسيراً مع أحكام الاسلام ومفاهيمه . (إنَّما المُؤْمِنُونَ أُخْوَةٌ) . سورة الحجرات ـ ٥٣ ـ

٢ ـ الحق العام للجماعة في الاستفادة من ثروات الطبيعة

وثبوت هذا الحق للعاجزين عن العمل والمحتاجين من أفراد لجماعه .

(مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَىَ رَسُوْلَه مِن أَهْلِ القُرَى ، فلـلّهِ ولـلرّسولِ ، وَلِذِى القُرْبَى واليَتَامَى ، وَالْمَسَاكِينْ وَابْن السبيلِ ، كَيْ لَا يَكُونَ دَوُلَة بَينَ الأغنِيَاءِ مِنْكُم) . سورة الحشر ـ ٧ ـ

وبالفعل إن هناك بعض القوانين الاسلاميه تطبق في البلاد الأجنبيه وهي مهملة في بلادنا ، كقانون دفع الضريبه من الاجور ، الى الدولة ، كي تعود هذه الضريبه فيما بعد إلى مستحقيها المحتاجين والعاجزين عن العمل كما رأيت ذلك في ألمانيا .

وأما عقوبة القمع والقوة ، فلا نقاش فيها ، لأن كل دولة اسلامية أو غيرها ، ينبغي لها أن تستعمل أسلوب القمع والقوة للدفاع عن هيكلها الاجتماعي والحفاظ عليه .

وأما عقوبة التهديد والعقوبة الصناعية ، فهي أيضاً أمور لا نقاش فيها ولا خلاف ، لأنها أمور لا بد لكل نظام أن يمارسها ، لأن في التهديد والانذار فائدة تعود على الفرد الذي يريد أن يفعل فعلاً ضاراً بالمصلحة الاجتماعية ، فالتهديد يكون بمثابة فائدة له حتى لا يقدم عليه ، ويكون لديه بمثابة فرصة للتفكير .

والعقوبة الصناعية لا ضرر منها ، طالما انها تعود بالفائدة على المعتقلين في السجن وعلى الدولة ، من ناحية تعلمهم للمهن ، ومن ناحية استفادة الدولة من طاقاتهم وإنتاجاتهم .

ـ المعاقبة بالقتل : ـ

يقول (دوستويفسكي) : ـ

« الجريمة هي عملية احتجاج ضد النظام الاجتماعي الغير صحيح لا أكثر ، وإذا نظم المجتمع تنظيماً صحيحاً ، كل الجرائم سوف تزول حالاً ، وعندها لن يكون هناك أي شيء ليحتج عليه ، وكل الناس سوف

تصبح محققة بعيدة عن الجرائم في لحظة واحدة .[1] »

إننا قد نتفق مع (دوستويفسكي) في ناحية واحدة وهي ، إنه من المعقول جداً ألا تحدث جرائم أو أية أعمـــال منحرفة في حال وجود النظام الصالح الذي يضم جميع المواطنين في بوتقة اجتماعية واحدة ، ولكننا نختلف معه في هذا النظام ، ما هو ؟! إنه غير الاسلام حتماً من وجهة نظره ، والاسلام من وجهة نظرنا .

ولذا فهو يرفض المعاقبة بالقتل في حال اقـــدام شخص على قتل شخص آخر ، في الوقت الذي يدعو فيه الاسلام الى معاقبة القاتل بالقتل .

(النَّفْسُ بالنَّفْسِ) . سورة المائدة ـ ٤٨ ـ

(كُتِبَ عَليكُمُ القصاص في القتلى الحر بالحرِّ) .
سورة البقرة ـ ١٨٧ ـ

وقد رفض كثير من المفكرين والقضاة الغربيين المعاقبة بالقتل في حال ارتكاب جريمة بشعة واحتجوا

(1) General Philosophy Nora Klabik - Page 216

بذلك ، أن كل انسان له الحق في العيش مهما مارس ، فيجب عدم التشريع بالقتل ، وإذا كان المجتمع يطلب من الانسان أن يحترم الحياة الانسانية ، فيجب أن يحترمه أولاً ، والحياة الاجتماعية تقر العيش والتقدم لكل مواطن لا القتل والموت .

يقول (دوستويفسكي) : —

« لئن تقتل لأجل وقوع القتل ، هو عقاب سيء لا يضاهى بالقتل نفسه[1] » .

وهنا نوجه الأسئلة إلى أصحاب رافضي قتل القاتل كمعاقبة في مقابل قتله : —

نقول : إذا لم يكن هناك قتل في التشريع ، أخطاء شنيعة يمكن أن تقع ، فماذا تكون النتيجة حينئذ ؟! ومن يستطيع أن يحمل مسؤولية كهذه على عاتقه ؟!.

وكيف يمكن أن يتخلص المجتمع من جرائم القتل ؟! وكيف يمكن أيضاً أن يوقف قتل إنسان للأبرياء ؟ وما

(1) General Philosophy N. K. - Page : 219

هي الضمانات لتخليص المجتمع منها أي من جرائم القتل إذا لم يكن في مقابل القتل قتل كحق لولي المقتول، وكردع لكل المجرمين عـــن القتل ؟ وكيف يمكن للمجتمع أن يتخلص من جرائم القتل، إذا لم يعاقب بالقتل نفسه، حتى يتخلص منها كلياً ؟!

وخلاصة القول: ـ

إنه على الرغم من أن الأحكام الوضعية لها دور ولو جزئي في السيطرة على السلوك الانساني وضبطه، فانها لا تكفي من دون الشعور بالمسؤولية والرقـابـه الموضوعيه الالهيه، لأنها لا يمكن لها أن تضمن الاحاطه بكل افعال الانسان، الخفية منها والظاهرة، وأن تستوعب كل واقعه.

فحين يقترض الانسان مالا أو يعقد صفقة تجارية مع شخص آخر مثلاً، فإنه قد يفي بالدين أو ينفـذ شروط الصفقة، وذلك خوفاً من العقوبة الاجتماعية.

وهذا الأمر يختلف عن الانسان الذي يملكه الشعور

الداخلي بالمسؤولية والرقابة الموضوعية الالهية ، لأنه يقوم بأعمال كلها على أساس ارتباطه بالعامل الغيبي الذي لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، فلا يمكنه أن يتلعب أو يتهرب كما يمكن أن يحصل ذلك في حال وجود أحكام وضعية ، لأنه يدرك ويعرف أن هناك قوة تعرف ما نفسه وفكره.

فلذا لا يكفي في المواطنة الصالحة أن تتحقق كنتيجة لرد الفعل الاجتماعي ، لأنه إذا افترضنا أن الرد الفعل الاجتماعي هو الأساس لأمكن التهرب من كثير من الواجبات ، عن طريق القوة أو الكذب أو الخداع . فلا يوجد ضمانات في هذه الحالات سوى الأحكام الالهية الصارمة والشعور بالرقابة الموضوعية الالهية .

نظرات دينية ونفسيات

الديانات وتطورها :ـ

إن من المعلوم تاريخياً أن الدياناتا في العصـــور البدائية كانت تأخذ طابع الاسطور . والكتاب الاول الذي صدر في هذا المجال هو كتاب (علم الاساطير المقارن) للعالم (ماكس مولر) حيث كان مولعاً بدراســـة علم الاساطير الهندية الاوروبية . ومن رأي (مولر) أن الآريين القدامى اتخذوا الشمس والقمر والسماء آلهة لهم . إن كرونس ابتلع أطفاله ، ثم لقطهم . هـــذه القصة الخرافيه ليست إلا تعبيراً أسطورياً غن ظاهرة قياسيه ، معبرة غن السماء مفترسه ومزدردة ، ثم بعد ذلك لافظه للسحب .

ثم جاء من بعده (بيرنت تايلور) الذي نقده وهاجم

نظرياته ، وقال بنظريه الحيويه والحيوانيه القائلة بأن منشأ الاعتقاد البدائي كان هو أن كل شيء له نفس وروح لا جسمانه الذي يموت فحسب ، بل فيه جنين الآلهه ، وقال تبعا لذلك بأن المرحله الاولى للديانـه كانت المرحلة الأرواحيه . وفي مستهل القرن العشرين أصدر (ماريت) أحد علماء الانثر وبولوجيا كتابـه (الديانه البدائيه) الذي بين فيـه أن المرحلة الاولى للديانات لم تكن اعتقاداً شاملاً كاملا في النفوس والأرواح بــل كانت احساساً بالخوف والدهشه التي ولدت ذلك الإحساس الذي كان ناجماً غن القوى الطبيعيه التي كانوا يسمونها « مانا » .

ومن ثم جاء (فريزر) ليؤكد لنفسه وللآخرين أنه كان السحر سابقاً للدين . وظهر بعد ذلك عالم في علم اللغه والاغراق وهو (ويتر ولهلم شميدت) إلذي كان من رأيه أنه لا يمكن أن نصل الى نشأة فكرة الاله ، دون أن تكون لدينا دراسه تاريخيه استراتيجيه لعلم الأعراق إذ إنها هي التى مكنته من التفصيل بين تقاليد العصر

الحجري وتقاليد العصر البدائي ، فمثلا بالنسبه لاستراليا حاول (شميدت) أن يبرهن على أن الايمان بالإله الأعلى منقوش على أقدام الألواح التاريخيه ، على حين أن فكرة الطوطميه كانت تختص بها القبائل الأحدث حضارياً .

ومن ناحية هـذه الدراسه فـانها تعتبر القبائل الإستراليه الجنوبيه الشرقيه ، وقبائل الأقرام ، وقبائل أميركا الشماليه وبعض قبائل أسيا ، مخلفات بشريه حيه منحدرة عن أقدم المدنيات والحضارات .

ووفقاً لآراء (فرويد) بدأت الديانة والثقافـــة بالمؤامرات البدائية . وقد قبل (فرويد) وجهة نظر (آتكينسن) من أن المجتمعات التي كانت بداءة كانت القبيلة مكونة فيها من ذكر قد بلغ رشده وعدد من الأناس والأشخاص القاصرين والقاصرات ، ومن بين هؤلاء من بلغوا سناً كبيراً . ويطرد زعيم القبيـلة الأبناء الذكور الى خارج القبيلة . وكان هؤلاء الأبناء المطرودون يقتلون أباهم ويأكلونه ، ويستولون على نسائه . وقد كتب (فرويد) يقول « حقيقة أنهــم

كانوا يأكلون فرائسهم من الآدميين ، التي كانت مقصورة على المتوحشين من أكلة لحوم البشر . وربما كانت الوليمة الطوطمية ، التي كانت تقيمها القبائل الهندية الأميركية في العصور البدائية المتغلغلة في القدم ، أول وليمة ، ثم تلتها ولائم كثيرة ، وهذه وتلك تذكرنا بتنظيم الجماعة والمجتمع والتحديدات الخلقية والديانة »[1].

ومن رأي فرويد أن كلمة (الله) لم تكن سوى كلمة مهذبة من تللك الكلمات التي تطلق على الأب للخلائق البشرية .

ومن خلال هذا نفهم أن (فرويد) كان محتقراً للدين لا يرى له أي هدف أو معنى .

وجاء بعد ذلك أحد علماء الاجتماع وهو (ادركهايم) الذي اعتبر بأن الدين كان مظهر لتجربة اجتماعية ، وقد بحث اصول الشعور الديني في تلك الحماسة الجماعية

---

(١) راجع لقاءات فكرية وأجوبة ـ للمؤلف ـ اللقاء العشر ـ ص ـ ٥٦ ـ

التي كانت ممثلة في جو الطقوس الدينية الاستراليه .

ومن رأي (ماكس مولر) أن علم الأساطير والخرافة كان من علم أساطير الأولين والأقدمين البدائيين ، وأن هذا العلم الأسطوري الخرافي كان وبالاً على اللغة ، وقد تمسك (تايلور) برأيه بأن الديانـــة البدائيه كانت في معظمها تمثيلاً للحيوانيه ، بمعنى الاعتقاد بأن الطبيعه حيه ، ذات حياة بواسطة الأرواح والأشباح . على أنه بعد ذلك بقليل نشأت فكرة تعدد الآلهـــه وفكرة الوحدانيه .

وإذا أردنا التعرض إلى رأي الماركسيه بالنسبة للديانات نجد أنها تفسرها بالعامل الاقتصادي ، كما تفسر جميع جوانب الحياة الاخرى به أيضاً .

فهي تأخذ العامل الاقتصادي تفسيراً أساسياً للكون والحياة ، ولنشوء الطبقـات في المجتمع ، وتدعي أن الدين إنما هو من صنع الدولة الحاكمه المحتكرة للشعب ، صنعته من أجل تخديرهم والسيطرة عليهم ، ويطلقون

عليه اسم أفيون الشعوب[1] .

فلذا يقول ماركس : ـ

« إن البؤس الديني ، هو التعبير عـــن البؤس الواقعي ، والاحتجاج على هذا البؤس الواقعي في وقت معاً . الدين زفرة الكائن المثقل بالالم ، وروح عـالم لم تبق فيه روح ، وفكر عالم لم يبق فيه فكر ، إنه أفيون الشعب[1] . إذن فنقد الدين هو الخطوة الاولى لنقد هذا الوادي الغارق بالدموع[2] » .

ونخلص من هذا الكلام كله شيئان : ـ

١ ـ انه لا يمكننا معرفه الاصل الاول للأديان ، ولا كيفية تطورها ، لأننا نفتقر في هـــذا المجال الى الأدلة العلميه ، وخاصه أن مثل هذه القضايا لا تخضع لقوانين العلم وقواعده ، إنما تخضع للأراء الوهميه

---

(١) راجع لقاءات وأجوبة اللقاء الرابع ـ ص ٣١ ـ المؤلف ـ
(٢) كارل ماركس ـ ص ـ ١٦ ـ ١٧ ـ

والتخمينات الظنيه ، فلذا لا يمكننا الإستناد عليها ولا الأخذ بها .

٢ ـ إن تفسير الديانات أو الدين من جانب واحـــد ، وطبقا لظروف معينة ، غير صحيح مطلقاً ، لأن التفسير الصحيح هو التفسير الذي يفسر الحيـــاة من جميع جوانبها ، بنوع من الشمولية والواقعية ، لا من جانب واحد كما فعلت الماركسية .

ويمكننا أن نفسر الممارسات الدينية البدائية المختلفة وتطورها ، بشيء واحد مهم هو أن كل تلك الممارسات الدينية المختلفة البدائية ، معبرة عن وجود الفطرة عند الانسان الأول من حين ما وجد وحتى الآن . وتلك الفطرة هي فطرة العبادة .

ـ نفسيات دينية : ـ

بعد استعراض تلك الفقرات حول تطور الديانات ننتقل إلى مشكلة أساسية في مجتمعنا وهي مشكلة عدم فهم الدين فهماً صحيحاً ، اضافة إلى الفراغ الفكري

الديني الماثل ، عقيدة ، وسلوكا ، وممارسة .

فكل انسان يريد أن يفهم الدين على حسب هواه لا على حسب ما يريد منه الدين ، فلذلك نرى كثيراً من الأشخاص الملتزمين بالدين ظاهراً ، عندما يصطدمون بمشكلة ما ، يحاولون تفسيرها حسب رأيهم ، مع أنهم يكونون مخالفين بذلك من حيث المبـــدأ ، لعقيدتهم ، بتفسيرهم الرأيي الخاص .

فمشكلة التكيف مشكلة جوهرية ، لأنها هي التي تحدد لك المنهج الصحيح لتسير عليه ، ومعنى التكيف هو أن الاسلام هو الذي ينبغي أن يكيفك لا أنت تكيف أنت الاسلام ، وهذ كثير ما يقـــع العكس والغلط فيه .

ونفسيات الناس اتجاه الدين وفهمه هي في الغالب كما يلي : ـ

١ ـ نفسية تفهم الدين بإطاره الشكلي ومن زاوية ضيقة من زاوية الصلاة والصيام فقط .

٢ ـ نفسية تفهمه بانه ضرب من الجهالات والخرافات والأوهام .

٣ ـ نفسية تفهمه من زاوية التصوف والترهبن .

٤ ـ نفسية تفهمه جيداً ولا تطبقه كما ينبغي وتتجه به اتجاهاً آخر مع أن ظاهرها الاسلام .

والنفسية الأولى التي تفهم الدين باطـاره الشكلي يمكن أن تتبلور إذا اندمجت بروح الاسلام اندماجـاً وثيقاً ، وتهيئت لها الأشخاص المناسبين لتفهيمهـــا ، والظروف الملائمة لها .

والنفسية الثانية التي لا تعتقد بدين وتعتبره ضرباً من الجهالات والأوهام ، كذلك يمكن أن تتبلور وتتغير إذا تهيئت لها نفس الأسباب المذكورة للنفسية الأولى من أشخاص رساليين يفهمونها ويعرفون كيف يجلبونها إلى الخط الاسلامي الصحيح .

والنفسية المتصوفة والنفسية التي تحمل الفكر الاسلامي

ذهناً ولا تطبقه سلوكاً وممارسة وسائر النفسيات الأخرى، بل كل نفسيات العالم يمكن أن تتبلور وتتغير ، ولكن بشروط أساسية ، وهـــذه الشروط ينبغي أن تكون متمثلة في الداعيه حتماً ، وهي كما يلي : ـ

١ عدم الغلظة والشدة في الحديث .

(ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) .
سورة ال عمران ـ ١٥٩ ـ

(وجادلهم بالتي هي أحسن). سورة النحل ـ١٢٥ـ

٢ ـ فهم نفسية الآخرين فهماً صحيحاً ، لكي تتسنى مناقشتهم من مراكز نقاط الضعف التي يعانون منها .

٣ ـ عدم استعمال الكلمات الصعبة والمعقدة ، لأن الناس في الغالب يقرب إلى ذهنها السهل البسيط ويمقت ذهنها الصعب المعقد ، ثم إن لكل مقام كلام .

٤ ـ اتخاذ موضع الهجوم في النقاش والتوعيه ، لئلا تدور الدائرة على المناقش أو الداعي إلى المبدأ ، فيخسر بذلك جولته وهدفه .

٥ ـ التعبئه الثقافيه ، بالاضافه الى التعبئه الروحيه التى ينبغي أن يملكها الداعيه عادة ، لئلا يقع في فلسفة الممارسه ويكون هو نفسه عاجزاً عن التطبيق .

٦ ـ استعمال الحجه المقنعه ، ومقارعتها بالحجج الاخرى .

٧ ـ الحوار الهادىء البعيد عن السفسطه والتعصب الأعمى .

هذه معظم الشروط التي لا بد من وجودها عند كل نفسية داعيه مؤمنة لكي يتسنى لها تغيير نفسيات وتجديد نظرات .

وهناك أيضاً شرط أساسي يبطل كل أساليب التغيير وهو الشرط الذي ينطوي على التغيير النفسي والاستعداد له أولاً .

إذ لا يمكن لأي نفس أن تتغير وان عرفت الحقيقة وقورعت بالحجه ، اذا لم يكن عندها الاستعداد والقابلية الذاتية للتغيير ، لأنه لا يمكن للإنسان أن يتغير إذا لم

يغير ما بنفسه أولاً . قال الله تعالى : ـ

(إنَّ الله لا يُغَيِّرَ مَا بِقَوْمٍ حَتىَّ يُغَيِّروُا مَا بِأنفُسِهِمْ) . سورة الرعد ـ ١١ ـ

وعلى هذا فإن مشكلة عدم فهم الدين أو الاسلام بالأخص كعقيدة ومبدأ ونظام ، مشكله كان لا بد وأن يتأتى عنها نفسيات مختلفة ومفاهيم خاطئة لا تمت الى الدين بصلة ، وكان لا بـــد أيضاً من مواجهة تلك النفسيات والمفاهيم الخاطئة ، وتغييرها تغييراً جذرياً ، بالأساليب الحسنة والأخلاق الرفيعة والمفاهيم الصحيحه. ومرحلة التغيير هذه لا بد وأن تكون شامله وعامه لجميع نفوس البشر كي تتفق وشمولية وعمومية الاسلام كدين ونظام للبشرية كافه .

ومرحلة التغيير أيضاً وإن كانت شاقة وصعبة ، لا ينبغي تركها واهمالها لأنها من روح الاسلام ودعوته الدائمة من أجل التغيير الشامل ، والعمل ضد جميع أنواع الظلم والاستبداد من أجل تحرير الانسان من

عبوديته لنفسه ولشهواته وللناس ، إلى عبودية رب العالمين .

وقد يتصور البعض أنه من الصعب جداً تغيير العالم كله وهو أمر مستحيل ، ولكن هذا التصور خاطىء حتماً لأنه تصور ينطوي على ضعف نفسي إيماني أمام تحديات العصر للإنسان المسلم أو للاسلام بشكل عام ، ولأنه تصور خال من الفهم للدعوة الاسلاميه التي تفرض على كل انسان مسلم ألا ينهار أمام أية قوة عالمية ، لأن هناك قوة أقوى وأعلم منها ومن كل شيء، قادرة على الانشاء والتغيير والتبديل ، على أن والمهم في الأساس هو العمل ، العمل الذي يحمل الدفع الاسلامي في جوهره ، العمل الذي يتميز بالصدق والاخلاص ، كي تضمن استمراريته إلى آخر لحظة من وجود الانسان على الأرض .

نظرات في الاخوة والتطبيق

« الاخوة » كلمة ترددها الألسن كثيراً ، ولكنها فارغة في المحتوى والتطبيق وهي في نفسها تطلق على عدة معاني كثيرة منها :

الاخوة في النضال ، الاخوة في اللحم والدم ، الاخوة في إطار القبلية إلى غيره من المعان الاخرى .

ويأتي هنا الفارق الجوهري بين الاخوة في العقيدة الإلهية التي تربط الانسان بربه ، وبين سائر المعاني الاخرى التي ترتبط بمبادىء اخرى بعيدة عن القيم أو الأخلاق . فالاخوة في النضال مثلاً تربطك مع الآخرين في طريق النضال من أجل تحرير الأرض والانسان ، لوحدة الهدف والمصير .

والاخوة في اللحم والدم تربطك مع أخيك الذي

هو من والديك ، لوحدة الشعور والاحساس بتلك الاخوة التي انصهرت فيك لانضوائك تحت الاسرة الواحدة التي رعتك أنت واخوتك في جو من العطف والاخوة والحنان الصادق ، إضافة الى ذلك الشعور الداخلي بالمحبة والاخوة والصدق ، عند كل أخ اتجاه أخيه من حين ما يولد الانسان حتى يبلغ مرحلة الوعي والادراك ، ونمو ذلك الاحساس الداخلي مع الزمن ، ووجود تلك العلاقة الدموية والعرقية والنسبية .

والاخوة في إطار القبلية تربطك بقبليتك فقط ، وتشدك إليها ، لتدافع عنها وتعمل لأجلها ، فهي السبيل وهي الهدف .

أضف إلى ذلك ، أن الروابط الاجتماعية والقومية ، هي من قبيل الروابط الاخرى التي تحمل مبدأ معيناً وتربط الانسان تحت أهداف معينة قومية أو اجتماعية وتحصره فيها وبمبادئها . وهذه الروابط وأمثالها لا يمكن أن تتضمن الشمولية بمبادئها ، لأنها محدودة في إطار قوميتها فقط ، والأهم من ذلك أنك لا تراها بمجردة

عن نوازعها الذاتية ونزعاتها الأقليمية ، لأنها لا ترتبط بشيء إسمه القيم أو الأخلاق ، يمنحها العطاء من أجل الانسان ككل ، يمنحها البناء الكلي الخالي من المصالح والنزعات الشجصية . أضف إلى ذلك أيضاً ، أن الروابط القومية والاجتماعية كثيراً ما تقع في تناقض بين فكرها وواقعه ، وبين نظرياتها وتطبيقاتها .

وعلى هذا الأساس نجد أن الرابطة الالهية التي تربط الناس في اطار أخوي رائع ، هي الرابطة الأصح والأشد والأمتن ، لأنها تربطك مع أخيك في النضال والتحرير ، ومع أخيك في اللحم والدم لتزيد من شدة الإلتحام والربط والتضحية ، وتربطك مع القبلية العالمية إن صح التعبير ، أي مع العالم والناس أجمع ، لتعيش قضايا الناس ، كل الناس ، وتعيش المجتمع كل المجتمع ، ليكون هو الهدف والأساس للعمل الاجتماعي المرتبط بالمطلق .

ولهذا نجد أن الرابطة الالهية أو الاخوة في الايمان أشمل وأقوى ، ولا يمكننا أن نرى هذه الشمولية الواسعة في

أي فكر أو أية رابطة اجتماعية أو قومية أخرى . والاسلام عندما يدعو إلى الاخوة ، ويؤاخي بين المؤمنين لا يريد أن يجعل منهم اخوة ماديين يتعاملون على ضوء المصالح الخاصة ، لتكون هي الهدف ، إنما يريد أن يجعل الرضا الالهي هو الهدف الأسمى والغاية القصوى التي ينبغي أن يطمح لها كل فرد وكل انسان مسلم .

وهذا الرضا الالهي يمكن أن ينتج عنه أجمل وأروع معاني الإيثار ، التي لا يمكن أن يحققها أي مبدأ أو تحققها أية رابطة اجتماعية أو قومية أو أخوية دموية ، أو رابطة قبلية ، لأنها لا تمت إلى القيم بصلة ، ولأن القيم والأخلاق هي التي تربي الانسان على الايثار وعلى أجمل أنواعه .

(ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) .
سورة الحشر ـ ٩ ـ

وقد يحلو للبعض أن يطلق على الدين من خلال الايثار ، المثالية ، أو التصوف ، وهذا خطأ وبعيد جداً

عن واقع الدين الاسلامي ، لان المثالية شيء والإيثار شيء آخر ، كما أن التصوف شيء آخر أيضاً ، لان المثـــاليون هم الذين يعيشون الغوغائية والسفسطة في أفكارهم وينكرون الواقع الموضوعي للحيــــاة ، ولان التصوف ظاهرة خاطئة تبعد الإنسان وتعزله عن واقع المجتمع ، والاسلام قد حارب هاتين الظاهرتين لأجل هذين السببين . وما الإيثار إلا صفة نابعة مـن روح الاسلام ، وهي صفة واقعية تتسم بالتضحية والعمل من أجل الآخرين والتفاني بأغلى وأبهض الأثمان حتى بالنفس ، من أجل تحصيل الرضا الالهي وتحقيق الخـير لمصلحة المجموع . وهل يصح أن ننعتها بصفة المثالية أو ننعت الدين الاسلامي بكلمة اخرى من خلالها بصفة المثاليه أو التصوف ؟!

ما أكثر زلات الأقدام وشطحات الأوهام !!

وبعد هذا نقول إن الاخوة على قسمين :ـ

اخوة في إطار المصلحة واخوة في إطار الإخلاص .

أ ـ الأخوه في إطار المصلحه :

وهي الأخوة التي يؤاخي فيها إنسان إنساناً آخر ، من أجل مصالح ومكاسب شخصيه ، ولا يمكنه تحقيقها إلا عن طريق ذلك .

ولا أريد أن أقيد المصلحة بالاخوة فقط ، فهناك أيضاً المصادقة ، التي عليها معظم الناس وا كثرهم ، لا تخلو من المصلحة الشخصية والكسب النفعي الخاص أيضاً.

وهـــذا ما هو غارق فيه مجتمعنا اليوم ، القوي يأكل الضعيف ، الكبير يحتكر الصغير ، والدولة تحتكر الشعب ، والشعب يحتكر بعضه البعض .

إن أصيب انسان بنعمة ترى الناس يحسدوه عليها ويطمعون فيها ، ويودون لو يستطيعون انتزاعها منه كأنهم وحوش كاسرة تحوم حول فريسة دسمة .

والمضحك والغريب في الناس أن معظمهم ، إذا لم يكن كلهم ، يتعاملون على حساب المصالح الخـاصة ،

ويشكون من بعضهم البعض . ترى أحدهم يقول إن الناس كلها تعمل لمصلحتها ومنفعتها الخاصة ، وهو في الوقت نفسه يعمل لحسابه الخاص ومصلحته الخاصة . وهكذ كل انسان في هذا المجتمع ، يشكو من النـــاس والناس تشكو منه .

وفي رأيي أنه من النادر جداً أن تجد انساناً بعيداً عن المصلحة ، حتى من يتكلم باسم الدين تجد منهم من يتعامل على ضوء مصالح شخصية كسبية . وحتماً إن من يضحك على الناس ويتاجر بهم باسمه ، لا يمثل الدين ولا يمت إليه بصلة .

وهنا تأتي مشكلة وهي ، إن العالم يغمره تيار جارف من المصالح الشخصية ، الناس كلها مصالح ، كلها رياء ومدح ، وحسد وبغضاء ، فكيف يمكن لهذا الانسان المخلص أن يعيش في خضم هذا الواقع ؟ هل يجرفه التيار ويصبح كسائر الناس يعاملهم كما يعاملونه ؟! أم يصـــارع التيار وينتصر ويبقى محافظاً على إخلاصه ومتزناً في عمله وسلوكه ؟ ولكن ما الذي يضمن بقاءه

على خطه ؟ أي ما هي الضمانات والمقومات التي تمكنه من الصمود أمام كل التيارات مهما كثرت أمامه واشتدت عليه ؟ !

بكل بساطة واطمئنان ، إن الضمانات الوحيدة والكفالات الأكيدة لمرحلة التصدي والصمود في وجه جميع التيارات ، هي الايمان بالله ، وما ينطوي عليه هذا الايمان من فهم صحيح وواقعي للاسلام .

أجل ! إن إيماني بالله هو الذي يجعلني أشعر أني أسير على خطى صحيحة مليئة بالرضا الإلهي في كل عمل أقوم به وفي كل خطوة أخطوها . الناس تعاملني على حساب المصالح الخاصة ، تكن لي الحسد والبغضاء تود لي لو أكون أحقر النـاس وأتعسهم ، لا بأس بذلك طالما اني أسعى للرضا الالهي فقط ، لا بأس في ذلك طالما أن علاقتي وارتباطي ، وجميع أمور حياتي مع الله ، يريدون لي الشر سيكفيني الله شرهم ، يردونني أن أكون أحقر النـاس وأتعسهم ، سيغنني الله عزاً وسعادة من فضله ، هذه الامور كلها وغيرها لن تضرني

ولن تزعزعني ، طالما اني أعتقد ، أني خلقت لله ولأعيش لله وأعمل في سبيل الله وأموت لله .

فلا يمكن للانسان أن يصمد أمام الصدمات النفسيه والاجتماعيه ، وأمام مختلف التيارات ، الا إذا كان يحمل في نفسه وروحه وكيانه ، الايمـــان الصحيح والفكر الصحيح اللذان يعطيان الإنسان الزخم الروحي والفكر العميق ، ويؤهلانه الصمود والتضحية من أجل الناس وخير الناس جميعاً ، في سبيل الله ، لأن سبيل الله هو التعبير التجريدي عن كل مصلحة ، ولأنه هو سبيل الإنسانية جمعاء .

٢ ـ الاخوة في إطار الاخلاص :

وهي الاخوة الحقيقية التي تعبر عن إنكار « الأنا » والتجرد الذاتي عن المصالح الشخصية ، في إطار الأعمال والعلاقات الاجتماعية المبنية على الاخلاص .

ومفهوم الاخلاض هو المفهوم الحقيقي الذي ينسجم مع مفهوم الاخوة الصحيحة ، لأن عدم الإخلاص لا

يكوّن التآخي ولا المحبة ولا التعامل بصدق ووفاء ، ولا يجرد الانسان عن ذاته ونوازعه النفسية .

قال الله تعالى : (إنما المؤمنون أخوة)[1] . والاخوة هنا تعني الاخلاص فيها بكل ما في الكلمة من معنى ، لأن التآخي الحقيقي والصحيح لا يمكن أن يتحقق بدون إخلاص ، وإنما الذي يتحقق هو الأخوة المادية التي سبق الاشارة إليها في (الاخوة في إطار المصلحة) .

وفي الآية الكريمة إشارة خفية إلى الاخلاص غير ظاهرة ظاهرياً ، وهي الظاهرة الرابطة بين الأخوة ، وهي ظاهرة الايمان ، فالناس أخوة لأنهم مؤمنون ، ولا يمكن لهم أن يتجردوا عن ذاتهم إلا بالإيمان الصحيح الواقعي ، والإيمان الصحيح الواقعي هو أكبر دليل على الإخلاص وانكار « الأنا » .

وطريق الإخلاص ليس أمر سهل ، لأنه يتطلب صراعاً نفسياً قوياً ، حتى يتجرد الانسان عن ذاته ،

---

(١) سورة الحجرات ـ ٥٣ ـ

ومن هذا الصراع ، صراع الانسان مع غرائزه وشهواته ، صراعه ضد غريزة حب الظهور والرياسة والسيطرة وما شابه ذلك من أمور تحتاج إلى الصبر والنفس الطويل .

وقد ذكر أن هناك حقوقاً في الأخوة ، وهي حقوق تتطلب صراعاً نفسياً مع الذات ، ليتنازل الإنسان عن بعض غرائزه وحبه لذاته .

وقد ذكرت هذه الحقوق في مواردها [(١)] ، عن الامام الصادق (ع) حيث اشفق على أحد أصحابه (المعلى بن خنيس) من أخباره عنها .

قال المعلى : قلت له ما حق المسلم على المسلم ؟

قال (ع) له سبع حقوق وواجبات ، ما منها حق إلا وهو عليه واجب ، إن ضيع منها شيئاً خرج من ولاية الله وطاعته . ولم يكن لله فيه نصيب .

---

(١) وسائل الشيعة ـ كتاب الحج احكام العشرة الباب ١٢٢ الحديث رقم ـ ٧ ـ

قلت : لا قوة إلا بالله .

وحينئذ ذكر له (ع) الحقوق السبعة من حقوق الاخوة الاسلامية قائلاً : ـ

١ ـ أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك ، وتكره له ما تكره لها .

٢ ـ أن تجتنب سخطه ، وتتبع مرضاته ، وتطيع أمره .

٣ ـ تعينه بنفسك ومالك ، ولسانك ، ويدك ، ورجلك .

٤ ـ أن تكون عينه ، ودليله ، ومرآته .

٥ ـ أن يكون لك خادم وليس لأخيك خادم ، فواجب أن تبعث خادمك ، فيغسل ثيابه ، ويصنع طعامه ، ويمهد فراشه .

٦ ـ ألا تشبع ويجوع ، ولا تروى ويظمأ ، ولا تلبس ويعرى .

٧ ـ أن تبري قسمه ، وتجيب دعوته ، وتعود مريضه ،

وتشهد جنازته ، وإذا علمت له حاجة تبادره الى قضائها ، ولا تلجئه الى أن يسالكها ، ولكن تبادره مبادرة .

ثم ختم كلامه (ع) بقوله : ـ

فإذا فعلت ذلك وصلت ولايتك بولايته وولايته بولايتك .

هـذا بالاضافة الى الحقوق الأخرى التي يطول الكلام بذكرها. ويكفينا التوصل ولو إلى حق واحد من الحقوق السبعة المذكورة .

إن وضعنا نحن المؤمنون لمؤسف حقاً ، لأننا بعيدون جداً عن تلك الحقوق ، بل عن الاسلام ، منهجاً وسلوكاً ، ترى الواحد منا مستعداً أن يتكلم بالاسلام ساعات وأيام ، ولكن كلامه يناقض سلوكه .

إننا نعرف هذه الحقوق وحقائق كثيرة عن الاسلام ولا نطبقها ، الأمر الذي يجعلنا نبعد بعداً كبيراً عنه .

إن الواقع مرير وصعب ، من يطبق ومع من تطبق؟!

إن المسلمين لو وقفوا على أيسر حق من حقوق الأخوة وأدركو معناه وابعاده وعملوا به لخف الظلم والعدوان ولوصلت البشرية إلى السعـــادة المثلى ، ولتحقق حلم الأقدمين في المدينة الفاضلة ، ولما احتاجوا الى الشرطة ولا الى السجون أو المحـاكم أو العقوبات ولمـا خنعوا وخضعوا لمستعمر .

إن في العين قذى وفي الحلق شجى وهيهـــات هيهات من التطبيق .

كلمة المستقبل

إن النفس الانسانية طماحة نحو الكمال ، إلا أن هذا الكمال لا يمكن أن يتحقق لاستيلاء النقص على بني البشر . ويمكننا أن نطلق صفة الكمال على الانسان الذي بلغ مرحلة عالية من العلم والأخلاق ، واجتمعت فيه معظم الصفات الحسنة التي يندر وجودها عند كل انسان ، والكمال الذي يصل إليه الإنسان ، إنما هو كمال انساني جزئي بالقياس إلى الكمال الكلي الالهي .

وانطلاقا من الطموح النفسي الموجود عند كل انسان الذي هو بمثابة النظرة المستقبلية ، كان لا بد له من السعي إلى تجسيد ذلك الطموح الثائر ، الذي يتعارك فيه التجسيد مع الطموح .

فالانسان بمقتضى طبيعته الطماحة ، طماح أيضاً

الى تحقيق وتجسيد طموحاته ، فيقـــع الصراع بين الطموح والتجسيد ، فاما أن ينتصر ويحقق طموحه ، وأما أن يخسر لأسباب مادية وغيرها ، فلا يحققه .

وطموح الانسان في مرحلة الصغر يكون مترجرج وتكون طموحاته كثيرة ، بمقتضى براءته وخيـــاله الجمالي الواسع . إلا أن هذه الطموحات تبدأ بالاقلال والذهاب لتتركز في طموح واحد عند بلوغ مرحـلة من الادراك والوعي الكامل .

ويستمر هذا الطموح مع استمراريه العزيمة والقدرة على التحقيق ، ولا عبرة بالسن ، ولذلك تجد ابن الخمسين أو الستين أو الثمانين ، لا يزال عنده الطموح ، طالما أنه يامل الخير والتحقيق بعد .

والشباب عامة والطلاب خاصة ، أكثر طموحاً من غيرهم ، لأن العلم الذي يحملونه يقوي طموحهم ويمدهم بالزخم الفكري ليشعل نار الطموح من جديد كلما انطفأ طموح . وبعد انهاء المرحلة الثانوية يقترب الطالب من

طموحه الأساسي الذي كان يطمح إليه سابقاً ، ليقرر بذلك مستقبله ويجسد طموحه . وحسبك أيها القارىء من أن تتهمني بالخطأ وتدعي بأني أتهجم أو أنتقد صاحب المهنة ، بأن ليس لديه طموح .

اذ حسب صاحب المهنة فخراً أن يكون صاحب مهنة شريفة ، وحسب صاحب العلم فخراً أيضا أن يكون صاحب علم ، فرب صاحب مهنة مخلص لمهنته أفضل بكثير من صاحب علم لا نفع منه ولا خير ، يبتغي من وراء علمه المنفعة الشخصية والفخفخة ، ولا يستفيد منه المجتمع ، فلا يرحم فقيراً ولا يعين محتاجاً .

والذي أريد أن أقول أن طالب العلم يتميز عن صاحب المهنة بأنه يملك قوة الدفع والحركة والأمل ، فكلما انطفأ طموح أشتعل آخر الذي يوقده العلم ويمده بالوقود .

ثم إن هناك مرحلة ضياع يعيش فيها كل طالب وكل شاب مثقف ، وهي المرحلة التي ما قبل الحسم .

فالطالب يحب أن يكون طبيباً ، أو مهندساً ، أو عالم ذرة أو فيزياء أو كيمياء وما شابه ذلك من أمور ذات مراتب عالية ، فيعيش الضياع في مستقبله ، تارة يريد أن يكون طبيباً وتارة يريد أن يكون مهندساً وتارة يريد أن يكون فيزيائي وما الى ذلك من مراكز علميه عالية .

وهذه المرحلة تسمى مرحـلة الضياع في المستقبل فيما قبل الحسم .

وعند إتيانها يعرف الطـــالب نفسه ما إذا كان بامكانه أن يحقق ويعمل ، الطب أم الهندسة أم الفيزياء أم الكيمياء أم التاريخ وما شابه ذلك .

ويمكن للطالب أن يحقق طموحه الأول الذي كان يطمح إليه ، لعجزه عنه بادىء ذي بدء ، وتمكنه منه فيما بعد ، بعد أن يكون قد قضى مرحلة من العمل والتحصيل المادي أو الفكري بالتخصص في مادة اخرى حتى يكون قد هيأ نفسه لمتابعة تحقيق طموحه الأول .

وهذه المرحلة ، مرحلة الضياع المستقبلي فيما قبل الحسم ، يعيشها أكثر الطلاب نتيجة لطموحهم الثائر الذي يبلغ أوج ظهوره عندهم لعلمهم ودراستهم من ناحية ولبلوغهم مرحلة من السن يظهر فيها الطموح كلياً .

وبالطبع فان هذه المرحلة أو الظاهرة غير محمودة ، لأنها تجعل الطالب يعيش في عـــالم الآمال والأحلام الحلوة المستقبلية ، فيصعب حينئذ تحديد المستقبل وقد تكون النتيجة لا شيء ، وتقع الصدمة العنيفة ، ورب مستقبل غداً ليس بمستقبل .

فينبغي إذن لكل طالب ولكل شاب أو انسـان طموح ألا يعيش بعد الأمل والطموح الضائع تجنبـاً للصدمات النفسيه التي قد تقلب حياة الانسـان رأسـاً على عقب .

وفي رأيي أن عدم تحقيق الطموح يعود في الغالب الى الظروف المادية والاجتماعية ، والتي يكون سببها في كثير من الأحيان الدولة أو الجهاز والنظام الحـاكم ،

فالدولة عندما لا تهيء الفرص أمام المواطنين كافة للعلم والعمل ولا تقر مبدأ العمل وتكافؤ الفرص ، تكون بدلك قد حرمت أكثر الشباب وأكثر النـــاس من تحقيق طموحاتهم ، فعندئذ لا بد من صرخـــة ضد النظام الفاسد الذي يقف حاجزاً أمام طموح الشعب ليتحقق النظام الصالح ويظهر الى الوجود ، ويتحقق طموح الشعب وكيانه .

وطالما أن النظام الصالح لن يوجد ، فلا بد من ثورة من أجل التغيير ، ثورة من أجل المستقبـــل وانسان المستقبل . والحمد لله أولاً وآخراً .

فهرست